دار الرسم بالكلمات
للنشر والتوزيع

The Evening Dark

الأمسية المظلمة

رواية تفاعلية

ياسين أحمد سعيد
محمود عبد الحليم
وإليا مصطفى صلاح
مصطفى جميل

بحق الأسماء النورانية، والأنوار المضيئة، والإيماءات والصفات البهية، والساعات الشمسية والقمرية، بحق كل مارد وجن وقرين، بحق كل خادم ومطيع وأمين.

بحقك سيدي أينما كنت، وأينما ذهبت.

بحقك يا أبا مُرَّة، نفذت مطلبك وكنت خادمك، وأحضرت مرادك، احضر سيدي، فالكل في انتظارك.

دعوة موجهة إلى ضيف الحفلة الرئيسي

حفل

توقيع

فكرة وتقديم:

ياسين أحمد سعيد

تلعن مؤسسة (ليل) الثقافية عن أمسية بنكهة الخيال.

تستضيف حفل توقيع ومناقشة رُباعي، لروايات:

- (الفضاء الآخر)، (ياسين أحمد سعيد).

- (راديو)، (محمود عبد الحليم) .

- (الشيطان وأنا)، (مصطفى جميل).

- (زورستر)، (داليا مصطفى صلاح).

يقام الحفل في مكتبة (ليل) فرع الهرم، في تمام الثامنة مساءًا.

****

جلجلت ضحكة عالية مفاجئة من محمود، لفتت أنظار رفاقه.

- الـــ... هههه.. افتتاحية.. الملصق..

هههههه.. مكتوب "تلعن"!

تحول مصطفى إلى داليا بنظرة خاوية، يفترض أنها هي!

هي من أشرف على إعداد اللافتة، وأتفق مع المصمم والمطبعة؛ كيف تقع في مثل هذا الخطأ؟!

عدلت داليا من وضع ياقتها، قبل أن تبرر بخجل:

- لا تلقيا بالًا، من يدري؟ لعل لفظة (تلعن) تناسبنا أكثر.

****

الساعة السابعة وأربعون دقيقة.

القاعة لا تزال شبه خالية.. صامتة.. باستثناء هدير التكييف بالأعلى، الذي فشل -تمامًا- في إثلاج صدور الثلاثة في الأسفل.

مصطفى:

- فيم القلق؟ لعل أغلبهم في الطريق، لا تنسوا أننا في أقاصي الهرم، فمن الطبيعي أن يتأخـــر.. قل شيئًا من عندك يا ياسين.

تحولت أنظار إلى شاشة عملاقة، احتلت الجدار الجانبي، أطل منها زميلهم الرابع.

تحركت شفتاه بما يوحي أنه يجيب، وإن خرج الصوت واهنًا تمامًا.

مال محمود نحو الحاسب النقّال، وأعاد ضبط الإعدادات السمعية لبرنامج المحادثة، بضعة نقرات، ثم رفع رأسه نحو الشاشة يهتف:

- تستطيع أن تتكلم الآن يا بلديات.

- ألو.. ألو، كنت أقول أنني أكثركم توترًا، لكن.. يكفي أننا معًا. إذا حظي المرء بصُحبة طيبة، ما الذي يهمه في تواجد جمهور (كثيف أو قليل)، أو حتى أأ.... اخبروني صحيح: -احتد صوته فجأة- لماذا لم يحضر أحد حتى الآن؟!

تأملت داليا أظافرها، ثم كررت أنها ليست مطمئنة:

- كل الكلام الذي رتبته في ذاكرتي.. كله انمحى تمامًا، كما أن لديّ سبب آخر يضاعف من

ضغطي العصبي، فاليوم –كما تعلمون- عيد مولده.

مصطفى:

- أنتِ فاقدة للذاكرة أغلب السنة يا صديقتي.. باختيارك.

أثارت الإضافة الأخيرة حفيظة محمود، فعدل –بتوتر- وضع الملصق المطوي تحت إبطه، ثم عقب:

- أرجو ألا تفتحا هذا الموضوع ثانية، فمن ناحيتي أجاهد كي أتناساه كما تعلمون؛ وأعترض على سيركما فيها من الأساس.

استمر الأصدقاء في النقاش، إلى أن قاطعهم مصطفى فور انتباهه فجأة إلى...:

- ملصق الحفل، تصوروا أننا لم نعلقه بعد!

محمود:

- حقًا؟؟ بالفعل صحيح، لكن أين تركناه؟

- تحت إبطك يا أستاذ!

****

احتلّ الثلاثة أماكنهم على المنصة، أمام كل منهم كارت تعريف منمق بخط اليد؛ من حسن الحظ أن بينهم موهوب في الخط العربي مثل مصطفى.

حانت لحظة تقديم الحفل، فاقتسموا معًا نظرات مغمسة بالتوتر، وبالطبع، نال محمود الحظ الأوفر منها، فقد ارتدى ثوب (الاعتماد على الذات) قبيل

يومين من الأمسية، فاقترح أن يقدموا أنفسهم بأنفسهم.

برر بأنهم استثنائيين، وليسوا صغارًا حتى يبحثوا عن "آخر" ليقوم عنهم بهذا الدور، ثم وعد بملء فمه أن يتولى شرارة البدء، على أن يتناوبوا أطراف الحديث تباعًا.

أدرك محمود –متأخرًا- أنه تسرع بذاك الوعد، فالوضع مربك لأبعد مدى، مهما كان عدد الجمهور متوسطًا أو حتى قليلًا!

هرب بعينيه للحظات، بحثًا عن أفكاره الهاربة، ثم عاد بما نجح في اصطاده منها، ونطق جملتين بالضبط (مرحبًا.. سعداء بتشريفكم.. إلخ)، ثم لكز مصطفى بجواره كي يتولى دفة الحديث، فرد

زميله بمثلها، وكأنما يعترض بمنطق (مخادع! أهذا التمهيد الهزيل، هو ما وعدت به؟).

المشكلة أن مصطفى عبارة عن ناطحة سحاب بشرية، بطوله الذي يدنو من المترين، أي أنه – غالبًا- كسر ضلعين لمحمود في تلك اللمسة الأخيرة.

-شكرًا صديقي محمود، و..ماذا أقول؟! إنني.. أقصد.. كنت أظنني وحيدًا في انحداري حالي من أحد هواة أدب الرعب، إلى (ملعون) به، لولا أنني اكتشفت خطأي، بمجرد تعرفي على الجالسين بجواري، فلي كل الشرف أن يكون أول حفل توقيع في حياتي.. بجوارهم.

تورد وجه داليا خجلًا من الإطراء، في حين هز

محمود رأسه بسعادة، وقد نسى قلبه الطيب تلك الضربة منذ ثوان.

على الجهة الأخرى، شاركهم ياسين من الأعلى بابتسامة باهتة.

لم يتضايق من نسيان مصطفى له، فقد اعتاد - منذ زمن- على وضعه الجديد ككيان نصف موجود.

غطت زميلتهم وجهها بكفيها لثانية، وكأنما تودع ملامح داليا الخجولة، لتستقبل تلك الأخرى الأكثر قدرة على التفاعل، ثم أعلنت:

- كل كاتب سينفرد بربع ساعة للحديث، يليها خمس للإجابة على أسئلة الحضور، ووفقًا لبرنامج الأمسية؛ سيكون قص شريط البداية من

نصيب طيفنا المغترب؛ ياسين.

****

انتقلت الأنظار إلى الشاشة الكبيرة في الجدار، وقد بدا هذا الجزء مسليًا للجمهور نوعًا؛ فهذه أول مرة يرون متحدثًا عن بعد.. بحفل توقيع، متحدث يطل عليهم بواسطة حاسب نقّال.. مكبر صوت.. سماعتيّ أذن!

شبّك الكاتب أصابعه أمامه، واستهلّ بإلقاء التحية، و...:

- لا زلت أحاول التصديق؟ هل أنا في حفل توقيع حقًا؟ وبرفقة من؟ محمود ومصطفى وداليا وكل هذه الباقة المبهجة من الضيوف! تمنيت اكتمال سعادتي بالتواجد بينكم مباشرة، لكن -

بكل أسف- لديّ ظروف قهرية تحول دون ذلك، سواء الآن، أو في أي وقت آخر.

من ثَمّ، أوجّه امتناني اللامحدود لزملائي على فكرة (الحضور لاسلكيًا) تلك، وما أتعبتم فيه أنفسكم من إعدادات تقنية مرهقة.. شاشة.. صوتيات.. تنسيق مع المكتبة.. إلخ.

في النهاية، أتمنى أن أحقق المعجزة، فأكون والخيال العلمي ضيفين خفيفين على (جلوبكم)...

بتر حديثه فور أن شاهد بعض الحاضرين يدارون ابتساماتهم الجانبية.

صمت لحظة، ثم وافقهم الرأي:

- هذا صحيح، من الغريب والطريف -بالفعل- أن تستمعوا لحديث عن الخيال العلمي

باللهجة الصعيدية، لذلك؛ يمكنني أن أنسحب فأوفر عليكم وعلى نفسي التندّر المتبادل، و...

قاطعته صيحات زملائه، تطالبه بالكف عن تحفزه المعتاد.

خفف ياسين من تخشبه، وبعد أن مد يده نحو زر إيقاف المحادثة بالفعل، عاد لسحبها ببطء، كأنما يتهرّب –بالغريزة- من إثبات تلك الصفة على نفسه.

- شكرًا، وأؤكد أنني أعذركم عمومًا، فحتى أقرب أقربائي في الجنوب السعيد، يسألونني: لماذا تركت مشاكلنا الاجتماعية، والجغرافية، والثقافية، كي تتجه إلى الخيال العلمي؟ أهو فرار من الواقع؟

على العكس، بالنسبة إلىّ، أدب الخيال العلمي

ليس هروبًا، إنما هو طريقة خاصة جدًا للمواجهة؛ لعل قضية (الطيف الرقمي) أبرز تجلي لهذا المبدأ في حياتي، حيث عجز وعيي عن إيصالي لحلول فيها؛ فنقلت المهمة –كالعادة- للاوعيي عبر كتابة قصة خيالية.

****

الطيف الرقمي

ياسين أحمد سعيد

"لا، ليس البروفايل، سأستطيع.. أن..!"

انبعثت الكلمات المتحشرجة من غرفة هشام، مما اجتذب أخيه خالد، المار في الردهة بالمصادفة.

أطلَّ خالد على وطن الفوضى المتمثل في غرفة أخيه، وفهم..

شقيقه نائم أمام حاسبه.. يهلوس.

مروحة وحدة المعالجة تصدر طنينها الرتيب، بينما اكتست الشاشة بسواد تام إلا من شعار "النوافذ" الذي تراقص على سطحها، أما هشام نفسه؛ فقد تدلى رأسه -كالمشنوق- فوق صدره اللاهث.

وجود شاشة الإيقاف يشي أن صاحبنا نائم منذ مدة!

تقدم خالد، وهز شقيقه بغلظة.

استغرق الأمر وقتًا حتى رفع هشام ستار جفنيه أخيرًا، ثم رمش عدة مرات ليكيّفهما مع الإضاءة.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أين؟ من؟ ماذا هنالك؟

شرح الأخ أن كل ما "هنالك" باختصار:

- وجدتك نائمًا أمام الحاسب، أهناك راشدٌ يفعل ذلك؟

مسح هشام خيط اللعاب المنحدر من زاوية فمه، بينما يسعى لتحجيم ما ارتسم على وجهه من بقايا فزع.

راق المنظر المضحك لخالد، ثم خمّن:

- كان كابوسًا إلكترونيًا فيما يبدو، إذ سمعتك تهذي عن بروفايل وفيس.

انصرف الأخ، تاركًا هشام خلفه يلملم شتات يقظته.

كلام خالد لم يبتعد عن الحقيقة كثيرًا، إذ يتذكر هشام –بالفعل- أن نومه تضمن أشياء من هذا القبيل.

اعتدل كي يحرّك الماوس بتثاقل، فتلاشت شاشة الإيقاف دفعة واحدة.

الفيس مفتوح فعلًا، بالإضافة إلى ثلاثة مربعات دردشة، كلها تتساءل أين اختفى؟ ولماذا بتر حديثه فجأة؟

تقافزت أصابع هشام على لوحة المفاتيح،

وكتب -سريعًا- على حائط صفحته، منشورًا يحكي عن التشوش.. والكوابيس.. ثم سحب الفوطة نحو كتفه، واتجه إلى الحمام.

لم يمكث أكثر من دقائق قبل أن يعود -مجددًا- إلى سجنه الاختياري، ليجد إشعارًا بثلاثة أعجبوا بكلماته.

كتب صيغة اعتذار سريعة، ونسخها إلى الثلاثة الذين بتر معهم الحوار قبل نومه، ثم.. هرب جسده في قشعريرة باردة، فهناك مربع دردشة جديد أضيء بالأحمر القاني، مشيرًا إلى احتضانه رسالة.

الدعابة أن اسم المرسل (H Ibrahim)، أي ذات الاسم الذي يستخدمه هشام لحسابه.

اعتصر الشاب ذهنه المشوش بالنعاس، لا، لا

يوجد أحد في قائمة أصدقائه يحمل نفس الاسم؟

ومن المُحال طبعًا أن يرسل رسالة لنفسه؟

إذن.. هناك من صنع حسابًا بنفس اسمه وصورته!

تُرى من صاحب هذا البال الرائق؟ من يملك الفراغ الكاف لحَبْك مزحة كتلك؟

نقر على المربع الحواري الجديد، فغاب اللون الأحمر عن المستطيل، قبل أن تظهر داخلها الثلاثة حروف المعتادة:

- هاي. :)

نظر هشام للمرّة العاشرة إلى رأس المربع، ثم كتب:

-هاي ورحمة الله وبركاته.

ظهر ما يفيد بأن محدثه يكتب ردًا، فلم ينتظره هشام، بل نقر اسم المتحدث، بقصد الانتقال لصفحته، وانتظر حتى اكتمال تحميلها.

-هل نمت جيدًا؟

ظهرت هذه العبارة الجديدة، في حين ارتعشت يد هشام الممسكة بالفارة، فصفحة الطرف الآخر هي نفسها صفحته؛ نفس المنشورات، آخر النشاطات، الصور.

أي أن أحدهم سرق حسابه، ويحدّثه منه.

لكن كيف؟ كيف يستخدم اثنان نفس الحساب في نفس الوقت، ويدردشان سويًا منه؟

انتبه هشام لما هو أفدح، كيف عرف مخاطبه بوقوعه في النعاس أمام الكمبيوتر، واستيقاظه توًا؟

كتبت أنامل هشام المتعجلة:

- أعترف أنها خدعة متقنة، ها أنا ذا أرفع يداي عن لوحة المفاتيح، أصفّق لك، والآن أوجز، واخبرني من أنت؟

- ألم تدخل على بروفايلي حالًا، لتجد أنها – ببساطة- صفحتك؟ الإجابة واضحة أمامك، أنا أنت، أو - بالأحرى - ظلك الرقمي.

شُلت أصابع هشام فوق لوحة المفاتيح، كيف عرف بفتحه البروفايل؟!

تبلبلت قدرة هشام على الاستيعاب، ثم تمالك نفسه قدر الإمكان، وهو يكرر:

- ظــ ل ر قــ مــ ي؟!

- أعذر جهلك.. ظلك الرقمي هو محصلة تواجدك على الفضاء الافتراضي.. بياناتك.. منشوراتك على مواقع التواصل.. تفاعلاتك.. معاملاتك البنكية.. بل وتمتد حتى إلى كل مرة ظهرت فيها على كاميرا مراقبة، في مكان عام..

- لقد تورمت رأسي من سخافاتك، قل من أنت سريعًا، أو.. سأجري لك حظرًا.

- ساعتها ستكون أول شخص يُجري حظرًا لنفسه!

بلغ هشام إشعارًا مختلفًا هذه المرة؛ كان طلبًا من محدثه بالدخول في مكالمة فيديو.

ارتاح هشام لهذا التطور، واضح أن محدثه ملّ اللعبة، وسيكشف عن وجهه.

ضغط هشام زر الموافقة، فظهر مربع يحمل صورة الطرف الآخر.

****

هو؟ أنا؟ من؟ ماذا؟

كان الشخص المقابل يطابقه ١٠٠%، بالضبط وكأنه انعكاس فى مرآة.

نفس خلفية الغرفة –أيضًا- بملصقاتها وشقوق جدرانها، بل ونفس زاوية ووضعية الكاميرا أيضًا.

الزاوية المنخفضة أو (**law angle**) كما يسمونها في السينما، والتي تمنح أسفل الوجه تضخمًا محببًا.

نظر (هشام) بهول إلى عفريته، هذا لو أن

هناك عفاريت تستخدم دردشة الماسنجر.

- من؟ اخبرني – بالله عليك- من أنت؟

- يا لك من ممل، لقد سألت نفس السؤال ألف مرة، الأجدر أن تنتقل لعلامة الاستفهام الأهم ألا وهي؛ ماذا سيحدث لك؟

اندلع بركان حارق من تربة ذكريات هشام، الآن، حيث استرجع الكابوس الذي استيقظ منه توًّا.

في المقابل، اتكأ هشام الآخر بكوعه على مسند المقعد، وهو نفس ما يفعله هشام الأصلي عندما يستحوذ عليه (الجذل).

ثم سمعه يواصل:

- أما زلت ترفض تصديقي، سأذكرّك بما يجعلك تقتنع.

أخبره عن حسابه الاحتياطي الآخر على الفيس (نسمة جريئة)، والذي يخدع به صديقه كمال، ويخاطبه من خلاله على أنه فتاة.

أخبره عن مشاركتك دعايا الحزب الإسلامي على صفحته أثناء الانتخابات، وبعدها بفترة كان يفتح الكاميرا مع الأخت اللعوب (I'M Easy)، وينخرطا في عرض لاأزياء.

- رفقًا بنفسك، وبهذه الصدمة على وجهك، أنت من اختار فصم ذاته إلى شخصين متناقضين، أعلم أنك لم تنكز يومًا نفسك، وتطرح عليها هذه السيناريوهات المجنونة:

ماذا لو تحرر (ظلي الافتراضي)، واشتبكنا أنا وهو في معركة؟ ترى من الأقوى؟

اجر إحصائية بسيطة، وانظر كم ساعة تقضيها في صنعي، في البداية كانت من أربع إلى ست ساعات يوميًا، والآن لا تقل عن عشر ساعات، أيّ أنني –ظلك الافتراضي- أحظى بالنصيب الأوفر من الوجود!

صدق أو لا تصدق، أنا الأقوى، فلا تلومنّ في ذلك إلا نفسك، أنت من جعلت ظلك أقوى ألف مرة منك.

تخدرت يد هشام المتصلبة على الفارة، ثم سقطت إلى جواره تدريجيًا.

- في المرة الأولى أفلت مني، وفى الثانية

هلوست بصوت عالي حتى أيقظك أخاك. لا أخالك تستطيع المقاومة لمرة ثالثة. كانت رجفة جناح أخيرة من ذبابة، قبل أن تموت في النهاية. تمنيت –صدقًا- لو تقاوم أكثر. فأنا في النهاية ظلك، ولن أفخر بكوني ظلًا لشخص ضعيف.

تمهّل الطيف الرقمي، وكأنما يتشبث بإطالة هذه اللحظات لأبعد مدى.

-عمّا قريب سيكتمل الاستحواذ، لتتحول إلى مجرد صنم متحرك.. ستتعطل قدرتك على إصدار أي فعل أو رد فعل، ومع أي موقف، ستنجرّ –كالدمية- إلى عالم الظلال، فتفتح هاتفك، أو حاسبك المتصل بالإنترنت، وتسلّم إلىّ راية اتّخاذ القرار عنك. أشعر بك تصدر مقاومة هزيلة، تتألم

من ضعفك أمامي، لا تقسو على نفسك.. لست وحدك.. كل أقراني يحرزون تقدمًا.

زحف الظلام من غرفة هشام الرقمي إلى نظيره الواقعي، فغامت الدنيا - تدريجيًا- أمام الثاني، ليهوي من حافة الوعي –سريعًا- إلى الأسفل، إلى بئر ظله الافتراضي.

****

(الطيف الافتراضي)- مقال

بقلم/ ياسين سعيد

المرجع الأساسي: دراسة مقارنة للنماذج الاجتماعية الأكثر الإصابة بمتلازمة (الفيسبوكيزم).

للباحث: مصطفى جميل

لعنة "الفيس بوك" المرضية، أو الـــ (facebookism):

مرض نفسي اجتاح العالم، تتلخص الأعراض -حسب وصف المصابين- في: "صفحتي على الفيس بوك تزور كوابيسي، وتوجهني - طوال

الوقت- بأوامر، أعجز من رفضها".

النتيجة:

- تحول آلاف البشر تحولوا جماد متحرك، تفتقر وتيرة حياتهم إلى المشاعر.

- فقدوا القدرة على التواصل الاجتماعي المباشر، بينما يدب فيهم النشاط والحركة والحياة - فقط- عندما يجلس أحدهم أمام حاسبه، أو يستعمل هاتف جوال متصل بالنت.

تم عمل مسح لعينة عشوائية من المصابين، فتبين استهداف المرض لنماذج اجتماعية/ نفسية معينة أكثر من غيرها، بالتحديد:

-من يختلقوا شخصيات افتراضية على الإنترنت، مناقضة تمامًا لشخصيتهم الحقيقية، ويزيد

متوسط استعمالهم للإنترنت عن ١٠ ساعات يوميًا.

بعد بلوغ المرض أوج انتشاره، ظهر تطور جديد .

حسابات وهمية طفيلية على مواقع التواصل المختلفة.

اختلف الكثيرون عن تحديد كنهها، وإن اتفقوا على تسميتها بـــ (الطيف الرقمي المشنوق).

****

عندما تشترك حديثًا في فيس بوك، أو في حالة حذفك لصورة بروفايلك.

حينها:

يضع الموقع -كبديل تلقائي- شكلًا طيفيًا بلا

ملامح، قصير الشعر في حالة لو كان صاحب الحساب ذكرًا، أو طويل لو كانت أنثى.

اشتهر البرنامج المتسلل الجديد، بظهوره كبروفايل تتصدره تلك الصورة، وإن يضاف إليها تفصيلة بسيطة؛ أن الرأس مائلة قليلًا إلى اليمين، وموثوقة بحبل يتدلي من الأعلى.

تفصيلة توضح لنا وجاهة تسمية (الطيف المشنوق).

تسلل هذا الدخيل إلى صفحات مرضى الظلال، بنسبة ٩٠% من الحالات يزرع نفسه فيها كبروفايل وسط قائمة الأصدقاء، ثم يسطو على صورة البروفايل نفسها، لصاحب الحساب المصاب، ويضع رمز الشبح المشنوق مكانها.

حتى الآن، يوحي الأمر بمحض تطفل فيروسي وقح، حتى بزغ تدريجيًا الجانب المضيء؛ حيث بدأت نسبة من المرضي في التحسن، وكثر كلامهم عن أن المشنوق يحدثهم في أحلام اليقظة والنوم معًا، ويساندون الجميع في مواجهة ظلالهم الرقمية.

اعتبر الجميع، أن ذلك جزء من هلاوس المرضى، ثم تفاجئوا عندما بدأت نسبة منهم، بدأت في التعافي فعلًا، وما زالت الأبحاث تجتهد لتبين الاقتران الغامض بين:

ظهور البرنامج، وتلك التغيرات التي طرأت على المصابين!

****

استجاب آسر للـــ (ترررررن ترررررررن) الطويلة الصادرة من جهة الباب، فهرع إليها بخطى مترعجة، مصحوبة بهتافه:

- على رسلك يا من بالخارج، سثقب الجدار من فرط ضغطك على الجرس.

فتح، ليجد - في مقابلته- جاره عمّار:

- عفوًا يا أخ آسر، أريد أن أعرف: هل أنت من أغلق الباب المؤدي للسطح؟

لأول وهلة، وجم آسر- لسبب غير مفهوم- وكأنما رأى عزرائيل ذاته.

ثم تجاوز هذا الشعور، قبل أن يجيب ببطء:

- مرحبًا يا أ. عمّار، كلا بالطبع، أنت وعائلة

حضرتك من يملك طابقي المبنى، أيّ؛ لو أن السطح مغلق، فمؤكد أن المفتاح معك.

ترنح عقل عمّار، وكأنما اكتشف هذه الحقيقة الآن فقط.

عادت كلمات آسر الحذرة، تواصل:

- نعم، أرجح أنه معك، لأنك الوحيد الذي أراه يصعد للأعلى، عمومًا، لو أن لديك حاجة عاجلة فوق، يمكنني المساعدة في حال رغبت بكسر الجفل؟

ابتسم عمّار رغمًا عنه مع اللهجة الصعيدية لآسر، حيث امتلكت وقع خاص مختلف عما اعتاد سماعه في المسلسلات، فتنهد ببعض الألفة، قبل أن يرد:

- ليس قفلًا عاديًا، فهو متطور من النوع الذي يفتح بكلمة سر، وهذا ما سيجعلني أُجن، أنا بالفعل -الوحيد- الذي يصعد إلى الأعلى، بينما لا أذكر أي شيء عن قفل أو كلمة السر، وجدت كلمة مكتوبة بخطي أيضًا على باب السطح، جربتها على القفل فلم تفتح كذلك.

- ما هي؟

أشار عمّار بإصبعه إلى باب آسر:

-عجبًا، نفس هذه الكلمة المكتوبة - بخطي أيضًا- على بابك.

نظر آسر حيث أشار محدثه، فوجد حروف متعرجة حفرت بأداة حادة، تنطق بكلمة:- (الآن).

أكمل عمّار:

- من الواضح أنني أشخبط كالأطفال في كل مكان، بما أنساه بعد ذلك، وأتعجب –أنا نفسي- من عدم وضوح مغزاه.

ثم.. ذلك النت اللعين، والشوشرة التي تغزوه بين الحين والآخر، بما أن السطح مغلق إلى أجل غير مسمى، لن أتمكن من تفقد الهوائي الخاص به في الأعلى.

- من يدري؟! لعله خيرًا. مؤكد تسمع عن ذاك الذُهان الذي أصاب الكثيرون، من مستعملي الفيس بوك تحديدًا.

- هذا يحدث لـــ "العيال" الهشّين فقط .

قالها عمّار بكبرياء، واستدار ينصرف.

فجاءه صوت آسر من وراء ظهره، يستوقفه :

- أستاذ عمّار، لحظة لو سمحت.

التفت عمّار والاستفهام يطل من عينيه.

- لو لم يكن في الأمر إزعاجًا، لدي مسألة في حاسبي، أتمني أن تلقي نظرة عليها، لن يستغرق الموضوع وقتًا، بالخصوص مع مهندس وباحث إلكترونيات بخبرة حضرتك.

- أتقصد عطلًا؟ تحت أمرك، وإن كنت أتعجب أنني بجوارك طوال الوقت، الباب في مواجهة الباب، فلماذا لم تستدعني فور حدوث المشكلة مباشرة؟

-كنت واثقًا أننا على موعد بغير اتفاق مسبق.

عبر عمّار باب الشقة بشهامة، فهو في كل الأحوال، لا ينوي أن ينفق من وقته ما يزيد عن

دقائق، إن وجده خطأً بسيطًا.. سيصلحه.

لو غير ذلك.. سيترك آسر، بعد أن يعطيه نصائح جذرية على غرار:

-"غيّر الوندوز"، أو "أرح بالك واشتر حاسبًا جديدًا".

تأمل عمّار أجواء الصالة التي يحفظها جيدًا، فهو يؤجرها بأثاثها، وواضح أيضًا أن آسر – من ناحيته- أبقي معالمها كما هي، الشيء الوحيد المختلف: صورة بحجم كبير، لشاب في أوائل العشرينيات، ممتلئ الوجه، هائش الشعر وكأنما صعقته الكهرباء، يقف مشتركًا في ضحكة مع آسر.

سأل عمّار:

- شقيقك؟!

- هشام، صديق قديم.

وضع آسر قابس الحاسب، ثم ضغط زر التشغيل، ثم قال يسرّي الوقت ريثما يتم التحميل:

- عفوًا، دقائق ويفتح الجهاز، آه، بالمناسبة؛ سمعت الكثير عن حضرتك قبل أن أتشرف بالسكنى لديك، قيل أنك كنت رافضًا -في السابق- أن تؤجر الشقة الفارغة، وتحافظ على خصوصية العمارة للعائلة فقط، ثم – لحسن حظي- غيرت رأيك مؤخرًا.

جلس عمّار على الأريكة، وتمطى بملل، وهو يومأ - بما معناه- : "هذا صحيح إلى حد كبير".

- سمعت أيضًا أنني لست أول من سكن هذه

الشقة، هناك آخرين سبقوني، يُشاع في المنطقة: أن جميعهم اختفوا فجأة، قيل لي ذلك بنبرة تحذير.

كم حملت عبارة آسر الأخيرة من التلميحات! وإن خفف من وطأتها كثيرًا النبرة المداعبة التي اكتست بها.

- تشعرني -يا بني- أنني التهمهم على العشاء! أؤكد لك: أن بعضهم اختفي دون أن يدفع آخر إيجار مستحق، أتمنى ألا تفعل المثل بالمناسبة.

أطلق آسر ضحكة مفتعلة بامتياز، ثم التفت إلى الحاسب الذي أصدر موسيقي قصيرة، نبهته إلى اكتمال التحميل، فدعا مرافقه للجلوس أمام الجهاز.

- هه، تفضل.

فتح آسر متصفح الانترنت، ثم حسابه في الفيس بوك، وسط نظرات مستغربة من عمّار بجواره.

تنقل الفتي الأسمر بين دروب الموقع الأزرق بسرعة، حتى بلغ صفحته الشخصية.

****

- الاسم: "الطيف الرقمي".

- صورة الخلفية: منظر واسع لسطح عمارة، به غرفة ذات باب موارب تسبح في مقدمته بركة من سائل كثيف.

- الصورة الشخصية: تلك الصورة الشهيرة تلك الصورة الفارغة أو (السيلويت) التي يضعها الفيس كبديل تلقائي، مضاف إليها تفصيلة بسيطة،

ألا وهي أن الرأس مائلة قليلًا إلى اليمين، وموثوقة بحبل يتدلي من الأعلى!

نفس صورة الأطياف المشنوقة التي تزور الآلاف في أحلامهم.

واضح –أيضًا- أن آسر مندمج في الجو، فيضع في خانة الاقتباس المفضل، عبارة :

معلقٌ أنا على مشانق الصباح

وجبهتي بالموت محنية

لأنني لم أحنها.. حية

من قصيدة:

(كلمات سبارتاكوس الأخيرة)

للشاعر: أمل دنقل

****

داهم عمّارًا إحساسٌ عارمٌ بأنه على علاقة بهذا البروفايل:

ماذا عن سطح العمارة الموجود ذاك الموجود في الخلفية؟!

ألا يشبه فعلًا سطح العمارة الخاص ببنايته، والمغلق –حاليًا- بكلمة سر؟!

لماذا يغرم به الساكن الجديد إلى هذا الحد، لدرجة اتخاذه خلفية للصفحة.

حال آسر – متعمدًا- دون استغراق عمّار في خواطره، فانتشله منها بعباراته المتدفقة، بينما يشير

إلى صورة المشنوق:

- ما رأيك؟ بالطبع تعرف هذه الصورة، إنها للبرنامج الطفيلي الأشهر، والذي صار يستهدف مرضى (الفيسبوكيزم) دون غيرهم، كما اقترن ظهوره بارتفاع معدلات شفائهم، مما أعجز الكل عن التقاط أي رابط أو تفسير، أؤكد لك أن العبد لله استطاع إيجاد واحد، وهو ما طلبت مشورتك لأجله.. كمهندس.

-رابط لم يره الجميع؟ و"أنت" توصلت إليه؟!

تحامل آسر على نفسه بصعوبة، كي يبتلع الإهانة الضمنية في طريقة نطق كلمة "أنت"، مرر أصابعه بين خصلات شعره، قبل أن يجيب بترفع:

- أعلم أنني غير متخصص، بل ودراستي بعيدة تمامًا عن مجال الحاسبات أيضًا، ورغم ذلك؛ أزعم امتلاكي وجهة نظر وجيهة وجامحة، تستطيع الحكم عليها بنفسك عندما تسمعها.

- تعلم أن البرنامج الطفيلي يستهدف بروفايلات المرضي دون غيرها، فبما أن صورته احتلت صفحتك، هل معني ذلك أن....؟

بتر عمّار عبارته، كانت أوضح من أن يحتاج لإكمالها، فمنحه مضيفه جوابًا عائمًا، بقولته:

- ومن منا سويّ نفسيًا مائة في المائة، المهم، دعنا نعود إلى فكرتي.

بدأ آسر تكبير الصورة إلى أقصى درجة، حتى بهتت تمامًا:

- يتطلع الكل بنظرة عامة إلى صورة الطيف المشنوق، ولم يفكر الكثيرون أن يدققوا النظر، أو يحللوها من منطلق فكرة (الستيغانوغرافي) .

أقشعر عمّار عند سماع اللفظة.

لقد اهتم بها كثيرًا في فترة شبابه، ثم انزوى عنها ليستغرق في تخصصه الآخر؛ الإلكترونيات.

كيف له أن ينسي الـــ"الستيجانوجرافي"؟! وما أدراك ما "steganography"؟؟!

****

"الستيجانوجرافي" أو التعمية بالإخفاء.

مصطلح إغريقي الأصل، يتكون من مقطعي Stego تعني إخفاء أو تغطية، Graphy تعني

الكتابة، فيكون معني الستيغانوغرافي الكتابة المغلفة أو المغطاة.

تعتمد فكرته ببساطة شديدة، على أن أغلب ملفات الكمبيوتر (كالصور مثلًا)، توجد مساحة غير مستخدمة، يمكن استخدام هذه المساحة بوضع معلومات مشفرة داخلها، دون أن يغير ذلك من معالم الصورة.

****

واصل آسر بهدوء مثير:

- أراك ساهمًا منذ تلفظت بالكلمة، فأخمن أنك مررت بها مرارًا أثناء دراستك، جيد، عمومًا، لو ربطت بين المصطلح، وما يردده المصابون، سنجد الحقيقة تسطع أمامك بلا مجهود، الإشاعة تقول: أن

الصورة قادرة على تنويمهم مغنطيسيًا، ومن ثَم؛ تهمس لهم برسائل تخاطرية، إذن دعني أتوغل في التخيل، و ألمح إلى ابتكار برنامج متسلل، أو حصان طروادة حاسوبي، أيًا كانت التسمية، هذا الابتكار خرق كل القواعد العلمية، بحيث يؤثر على مستخدمين معينين للكمبيوتر تخاطريًا، ويبث في بعقولهم محتوي ذهني خفي .

صمت آسر، وترك لعمّار فرصة لاستيعاب ما يقول، المشكلة أن عمّار مبلبل الذهن كثيرًا، حيث يطعنه الإحساس الغاشم الذي أشرنا له سابقًا؛ "الإحساس بأنه مرتبط معالم هذا البروفايل، وكل شيء فيها مألوف:

سطح العمارة في الخلفية.. المشنوق في الصورة

الأساسية.. كلمة (الآن).

غَزَل السكوت شرنقته على المكان، دقائق، ثم مزق عمّار هذه الخيوط برد المعاند:

- أتريد رأيي ؟

أومأ آسر إيجابًا، فنهض المهندس كابحًا كل ما يموج بصدره، ليقول كلمته النهائية:

- قلل من مشاهداتك لأفلام الخيال العلمي الأجنبية، سلام.

نهض آسر بدوره يستوقفه:

- مهلًا يا أ.عمّار، أتعني أن رؤية الصورة مكبرة لم تشعرك بشيء، متأكد؟ إذن، سأتحدث عن نفسي: فأصارحك أنني أرى رؤى غامضة بمجرد

النظر إليها، وأخشى أنني أهلوس، من ثم قررت أنك الوحيد الذي سينهي حيرتي، أنت رجل علم، مما يعني أنك أعصى منى بكثير- على التعرض للخديعة. واضح من عينيك أنك تكذّبني؟! الحل بسيط.. جرّب بنفسك، اجلس ٥ دقائق أمام الصورة، ثم انهض بعدها وصارحني بأنني معتوه، أعتقد أن هذا أمر هين لن يعطلك كثيرًا، بينما سيفرق معي أكثر ما تتصور.

التقت عينا عمّار وآسر، تطاير شرر التحدي بين الاثنين.

المؤسف، أن الإحساس يتملك من عمّار بحق إنه على علاقة قوية بهذه الصورة، من أول وهلة سطت على جزء منسي من كيانه.

قرّب المهندس كرسيه نحو الحاسب بعناد، ثم ودع عينا آسر بنظرات أخيرة، قبل يجلس مصوبًا إياها نحو.. صورة طيف مشنوق.

****

ظلال.. في مواجهة بطل مات ولم يمت.. فيسبوكيزم.. (الستيغانوغرافي)..كلمة سر.. هذا يحدث للعيال الهشّين فقط.. سطح العمارة.. سائل جيلاتيني.. لن أتمكن من تفقد الطبق الهوائي الخاص به.. البرنامج المتسلل.. الآن.. الطيف..

الطيـــ...

الـــ...

****

رفع عمّار جفنيه بغتة، فكشفا عن عينين محمرتين .

الآن تذكر كل شيء.

وجد آسر يجلس في مقابلته، يتطلع إليه بوجه فاض من ملل الانتظار.

- هل عرفت الآن من أنت؟!

انشغلت حنجرة عمّار بالتقاط أنفاسه اللاهثة، فاكتفى بإيماءة صامتة أن (نعم).

- وهل عرفت من أنا؟

كرر عمّار الإيماءة نفسها، لينتزع من حلقه تعليقًا مبحوحًا هذه المرة:

- تبًا، عملية الإفاقة صارت عنيفة جدًا.

- لا تلومنّ إلا نفسك، فأنت من ابتكرها .

فرج عمّار شفتيه في شبه ابتسامة، إن آسر محق.

هو من صمم النظام بأكمله.

الآن استرجع كل الحقائق.. إنه عمّار.. مبتكر المشنقة الرقمية..

للدقة: ليست مشنقة بالمعني الحرفي، بل تابوت رأسي يحوّل عقل المتطوع إلى نبضات رقمية، ثم يطلقه عبر الفضاء الافتراضي، فيكون مؤهلًا لبث رسائل كامنة داعمة للمرضى، وفي نفس الوقت؛ يخوض المعركة الشرسة ضد الظلال، حيث تظل الطريقة الوحيدة المجدية لمواجهة طيف، إن تغدو مثله.

يتبقي التنويه: أن هذه الرحلة في اتجاه واحد!

أي أن المتطوع يفقد جسده المادي أثناء هذه العملية، ويصير أبد الدهر مجرد حساب على مواقع التواصل، يتفاعل مع الآخرين كعقل بلا جسد، وطنه الجديد "الأسلاك والكابلات".

لطالما خشي عمّار -طوال الوقت- من فشل مشروعه، إذ قد يسيطر عليه قرينه الرقمي، خصوصًا: أن المهندس مضطر للتعامل مع الحاسب طوال الوقت، مما دعاه إلى ابتكار خط دفاعي عبقري:

- أن يعرض نفسه –بدوره- للتنويم بعد كل عملية، فيُنسى نفسه كل شيء، حتى تجئ اللحظة الخاصة، ويأتيه متطوع جديد يضع صورة المشنوق

في بروفايله + خلفية تعرض صورة سطح العمارة.

يلتحق المتطوع ببناية عمّار، ومن ثم يتلقي التهيئة الذهنية عبر الرسائل الكامنة بصورة بروفايله، ثم ينتظر.

يمنع -منعًا باتا- من محادثة عمّار أو التلميح إليه، لابد أن يتأنى حتى يطرق عمّار، ويحدثه عن شأن بخصوص سطح العمارة.

هذه هي إشارة البدء.

وقد كان بالنسبة لآسر.

****

سار "آسر" و"عمّار" كتفًا في كتف، أثناء صعود الدرجات الحجرية للعمارة المؤدية إلى

السطح، حتى انتهى الطريق بباب موصد.

أطرق عمّار برأسه، يستشعر ثقل الخطوة التي سيقدم عليها، فسأل مرافقه:

- أأنت مُصرّ؟!

هز آسر كتفيه، وأجاب ببساطة:

-لا أملك سوى حل من اثنين، إما أن أظل كما أنا، تحت أسر قريني الإلكتروني، كانسان إلى الجماد أقرب. الحل الثاني: أن أتخلي عن كينونتي البشرية، لأصير ظلًا رقميًا مثلهم، فأحاربهم ندًا لندٍ.

شرد لثوانٍ، قبل أن يلقي كلمته الأخيرة:

-اسمي هو ما جعلني أحسم الاختيار نهائيًا، كيف لمن عاش عمره -كله- ينادونه: (آسر)، أن

يستكين للتحول إلى (أسير).

مد عمّار يده إلى الرتاج، وضغط أزرار الحروف الثلاثة لكلمة السر، "آسر".

إذ–دائمًا- تأخذ اسم المتطوع المنتظر.

خطا الاثنان إلى السطح المنبسط الخاوي، إلا من غرفة وحيدة واسعة تحتل نصف مساحته:

أكمل الرجلان سيرهما بخطي بطيئة، نحو القدر الذي اختاره آسر لنفسه.

وضع عمّار إبهامه في مربع أخضر صغير، ليضاء المربع بضوء باهت، تلاه فتح الباب آليًا، وقبل أن يوقد عمّار النور الداخلي، تحرك آسر إلى منتصف الغرفة، قبل أن يقف أمام الركن الذي يحتوي المشنقة الرقمية.

ضغط عمّار زر المصباح، ليغمرهم الضوء الأبيض، ويتمكن آسر من رؤيتها بشكل جلي.

سأل المهندس وهو يجتهد –عبثًا- في تخفف الموقف بابتسامة:

- أراك تحفظ المكان؟!

- عايشته ألف مرة في الرسائل الكامنة هنا.

أشار إلى رأسه.

تذكر عمّار فجأة:

- لحظة! هناك شيء وحيد لم تصارحني به، من الشاب الذي معك في صورة الصالة.

هزّ السؤال أعمق أعماق آسر، قبل أن يكرر إجابته السابقة عن اسم صديقه.

لحظة صمت، ثم استفاض الطيف المنتظر بتفاصيل أكثر:

- كان الأقرب لقلبي أيام المصحة، لكن للأسف، امتلك مساحة تناقضات قياسية بين شخصيته الحقيقية، وظله الرقمي الذي اختلقه على النت.

لذلك، تدهور –سريعًا- إلى المرحلة الرابعة من المرض، تحول كيانه – كما يعلم الجميع عن هذه المرحلة - إلى محطة بث للظلال، يقوي تأثيرها على من حوله، فاضطررت للابتعاد، لأراه -تدريجيًا- يدمر نفسه ومن في دائرته، حتى.. انتحر.

لعل ذلك أحد أهم الأسباب التي حسمت قرار آسر بالتواجد هنا.

عمّار:

- تمنيت لو كنت مكانك، لماذا أظل دائمًا على البر؟ بينما أنتم من يرحلون؟!

حارب آسر كي تخرج نبرته متماسكة:

- لكل منا دوره، لو كنت أنا مهندسًا للكمبيوتر، بينما أنت شابًا يملك اللياقة/ الطاقة النفسية المناسبة؛ صدقني كنت لأشجع –وقتها- أكثر منك على تبادل الأدوار.

أطرق عمّار برأسه إلى الأسفل:

- يثقلني تأنيب الضمير مما سيصير لك.

ثم أشار إلى مادة جيلاتينية معبأة بأوعية زجاجية:

- وما صار لمن قبلك فعلًا.

نظر آسر -حيث أشار عمّار- إلى الرف الحافل بالزجاجات، ذات البطاقات المعنونة.

- من يدري، لعلنا أفضل حظًا كما قلت لك، لا تراع كثيرًا لمسألة تأنيب الضمير تلك، إذ ستستيقظ من نومك وقد نسيت كل شيء.. كالعادة..

اتجه آسر إلى المشنقة بخطوات ثابتة، ثم توقف فجأة:

- آه، لا تنس رجائي السابق بكتابة السطور إياها على بقاياي، أعلم أنه مطلب مسرحي بعض الشيء، لكنها لمسة ستظل تسعدني.. في مثواي الأخير..

حشر آسر جسده داخل التابوت الرأسي، ثم أحاط وجهه بالقناع، بينما يعاونه عمّار بحركة متثاقلة.

أنهيا معًا إغلاق المشنقة، تلكم المشنقة التي لا نخنق، وإنما تذيب!

تم كل شيء في سرعة، ودونما جلبة.

سرت شرارات كهربية حول آسر، ثم تحول جسده بالكامل إلى حزمة ضياء ساطع، انتقلت إلى كابل الانترنت بجواره، في حين ذاب ما تبقى منه إلى مادة جيلاتينية كثيفة.

الآن اكتمل انتقال آسر، وتحول –رسميًا- إلى جندي رقمي جديد.

التقط عمّار قفازًا طبيًا وكمامة، ثم انحنى يلملم

السائل الجيلاتيني، والتي كانت منذ قليل بشرًا يتحدث، ويبتسم، ويمازح.

بشرًا عُرف باسم "آسر"!

عبأ البقايا داخل البرطمان الزجاجي الذي حمل اسم الطيف الجديد، ثم نفذ الطلب الذي وصفه الشاب بـــ"المسرحي"، فأمسك قلمًا، وأضاف تحت الاسم؛ سطور:

معلقٌ أنا على مشانق الصباح

وجبهتي بالموت محنية

لأنني لم أحنها.. حية

*

على صفحة الشاشة الجانبية الكبيرة؛ صمت ياسين، إيذانًا بوصول فتيل القصة إلى نهايته.

- قرأت قصتك يا صديقي ياسين، وراقني استغلالك حقيقة ذاك المرض النفسي، الذي تفشي عالميًا منذ أعوام، لكن يعيبها – في رأيي- أنها رمزية تمامًا، وتفتقر لشرط (قابليتها للحدوث علميًا)، وبالتالي أتحفظ –تمامًا- على تصنيفها كأدب خيال علمي.

أطل ياسين بنظرة ثابتة، إلى صاحب المداخلة في الصفوف الأولى:

- أنت واثق أنها غير قابلة للحدوث يا مدحت.

- (بتحد) طبعًا، كيف لجهاز أن يحول إنسانًا

إلى طيف إلكتروني، وكيف لفيروس كمبيوتر أن ينيم المستخدمين مغناطيسيًا، وكيف...؟ وكيف...؟

أشار ياسين بسبابته إلى صدره، ليتجمد على هذه الوضعية لثوان، وكأنما يوقف إعصارًا داخليًا يعتمل به، ثم عقّب أخيرًا:

- لن أناقشك في إمكانية حدوثها من عدمه، فالعالم ملئ بالمستحيلات التي تحدث طوال الوقت، دون علم الأغلبية، ولنفرض -أيضًا- أنها ليست من الخيال العلمي، التصنيف الوحيد الأبقى من وجهة نظري؛ هل القصة (جيدة) أم (سيئة)؟

وقف سائل آخر في أقصى القاعة.

ميزه ياسين على الفور، إنه الوسيم ذو النظارة الطبية (كريم):

- لم أنهض لأتحدث عن القصة، بل لأعاتب، أنت فالح فقط في الثرثرة على الفيس، بالإضافة إلى مشاركتنا التخطيط -عبر النت- للقاءات ومناسبات، ثم تأتي عند مسألة الحضور، وتبدأ في التملص، تصور أن أحدًا منا لم يلتقيك شخصيًا قبلًا! ثم تكتمل النذالة، لنجدك تخلفت حتى عن حفل توقيعك؟!!

تبادل رفاق المنصة نظرات صامتة، في حين فغر ياسين فاه، وظل ساكنًا على هذا الوضع المضحك لثوان، قبل أن ينجح في كسر جموده أخيرًا، ويُعقب:

- تشرفني مشاعرك الطيبة يا صديق.

اعذرني في تغيبي الاضطراري الدائم، فدوني

وإياكم حواجز ومسافات، أعجز عن تخطيها، لذلك اكتفي بتصديعكم طوال الوقت على مواقع التواصل، ولن تعرفوا كم يؤنس ذلك وحدتي في عالمي الموحش البعيد. عمومًا، الأهم أن تلتقوا أنتم سويًا على الدوام، وتحرصوا –لأجلي- على التقاط الكثير من الصور، سواء في هذه الحفلة أو غيرها، فهي مصدر الضوء الوحيد لي، الذي يهون على منفاي الدائم هنا.. في الظل.

****

رغب ياسين ألا ينكأ هذا الجرح أكثر، فأسرع يغير مجري الحديث:

- أعتقد أن قصتي نالت ما يكفي من المناقشة، فدعونا ننتقل إلى العمل الثاني، الآن.. مع أخ عزيز

أعتبره توأمًا لي، لكثرة ما نفكر على نفس الموجة: الموهوب محمود عبد الحليم، أو "العندليب" كما أحب أن أدعوه.

ابتسم محمود:

- شقيقي الأثير ياسين، كلامك يملأ صدري سرورًا، وإن أخشى ظنهم: أننا نتبادل التملق لكوننا أصدقاء، كما يشرفي قولك أننا نفكر على (موجة) واحدة، تشبيه في محله تمامًا على اعتبار أن قصتي التالية تتحدث عن الأمواج الأثيرية، عملي الأدبي –يا سادة- يحمل اسم "راديو".

****

راديو

محمود عبد الحليم

ازداد الجو برودة وظلمة مع خيوط الفجر الأولى، بعد أن أطال عم (أسعد) النظر إليّ كثيرًا.

عيناه الضيقتان تفضحان ما تكنه نفسه من مكر!

صافحني قائلًا -في عجل- لسائق سيارة الموقع الذي يقوم بنقل العمال و المستلزمات البسيطة من وإلى الكسارة، والذي أوصلني منذ دقائق:

-"دقيقة واحدة يا (أحمد)، سأخبره بما عليه عمله وأرافقك."

فاكتفي (أحمد) بهز رأسه في لا مبالاة، ولم يعلق.

هذا الرجل ليس سهلًا أبدًا، أقصد عم (أسعد) بالطبع.. لم أقتنع بصفاء سريرته التي يحاول أن يعكسها بمظهره البسيط أو بشعره المختلط بالشيب

والتي تكفلت قلنسوته الصوفية بتغطية معظمه، ولا بشاربه الكث القطني وذقنه شبه النامية أو حتى المسبحة التي يمسكها بيده.

سألني في عجل:

-"أنت (كرم) إذن؟ خذ حذرك فـــ وردية النهار صعبة.."

وخلال عدة لحظات أعلمني بدفتر الموقع شفهيًا وأخبرني بآلاف المعلومات في أقل من ثانيتين والتي نسيتها كلها بالطبع.. ثم أشار لي بيده مودعًا - في تكلف صارخ- على طريقة (الوداع) الشهيرة في الأفلام العربية القديمة.. ثم استقل سيارة الموقع ورحل..

وأصبحت وحدي أخيرًا..

****

الميزة الوحيدة التي تراها شركة الأمن في شاب لم يتعد الثالثة والعشرون –كشخصي- هي أنني متعلم.. لذا نقلت لهذا الموقع لأنني أتقن القراءة والكتابة و الحساب.. فوظيفتي - بجانب حراسة كسارة أولاد نعمان - تتطلب تسجيل كل ما هو وارد للمكان وكل ما هو خارج منها..

وكي أصف عمل الكسارة ككل –بالضبط- فهي مشروع لإنتاج الأسفلت ومكونات الطرق، من حجارة وتربة رملية، ورغم أن الأسفلت هو أكثر ما تنتجه الكسارة.. إلا أن الرمال و التربة الزلطية والتربة المختلطة بخليط من المازوت والقطران والشحوم المختلفة؛ احتلت مساحات

شاسعة فيها بشكل يدعو إلى السخرية..

لم يخرج عن هذا النمط سوى الأجزاء المحيطة بها من الخارج وبمبنى الإدارة فقط.. كأن بيئتها الأصلية لم تتغير إلا بالكاد.. صحراء صغيرة من أصل أخرى أكثر عظمة!

****

(٢)

-"أسبوعان كفيلان لتعرف الكسارة جيدًا يا (كرم).. لَمَ القلق؟"

-"لكن.. كيف أكون وحدي ليلًا؟"

كالعادة رسم عم (أسعد) تعبير أبوي مزيف، وقال في تبسط أكثر زيفًا:

-"خذها ببساطة.. هي وردية راحة.. وسأقولها لك بصراحة أكثر.. هي وردية نوم.. بعد أن تستلم ورديتك ستقوم بفحص جميع مداخل ومخارج الكسارة، وتتأكد من غلق البوابات وبالأخص البوابة الرئيسية."

لم تجد مجادلتي نفعًا.. ومعهم كل الحق.. لن يجدوا ساذجًا أفضل مني ليتحمل عبء وردية الليل..

****

أحضرت عدتي معي لهذه الأمسية.. برادي الكهربائي.. سجائري.. الشاي.. السكر.. الراديو.. بعض الطعام.. معطف صوفي.. قلنصوة صوفية صنعتها لي أمي منذ زمن و لم أرتدها إلا

الآن.. جريدة.. ورق أبيض.. قلم رصاص.. قلم فحم..

لا شيء يقتل هذا البرد و الملل والوحدة أفضل من هذه المجموعة..

****

شرعت أدير المذياع على المحطات الإذاعية المختلفة الواقعة على الموجة القصيرة ما بين الفلسطينية والأردنية والإسرائيلية، وهذا نظرًا لتواجدي بالقرب من الحدود المصرية مع الكيان الصهيوني.. الإذاعات الواقعة على الموجات القصيرة في الكسارة التي أجدها الآن لم أجدها صباحًا.. حتى إذاعة الأغاني المفضلة لدي والتي أوقفت مؤشر الموجات عليها لم أجدها..

كم أتمنى أن أجد إذاعة نجوم إف إم أو نايل إف إم لكني لم أجدهما لا نهارًا ولا ليلًا هنا للأسف..

توقفت عند محطة أغاني شبيهة بمحطتي المفضلة إذ تعرض عدة أغاني عربية وأجنبية تباعًا.. هذا ذوقي المفضل..

تنهدت محاولًا القضاء على رهبتي ثم أشعلت لفافة تبغ.. وفي هذه اللحظة تحول أكبر أحلامي إلى احتساء الشاي الساخن وتدخين لفافة التبغ على أنغام الراديو، ونظرًا لأنه لا يوجد سوى قابس واحد للكهرباء فيجب أن أقوم بفصل قابس المذياع كي أستخدم البراد الكهربائي.. وهذا ما لا أطيقه، فالسكون في هذه المنطقة يجمد الدماء في العروق..

في النهاية استطاعت رغبتي التغلب على خوفي وفصلت قابس المذياع لإعداد الشاي..

****

ما زالت التشوشات والتداخلات الصوتية لم تنتهِ بعد.. لقد طال الأمر عن ذي قبل..

لا.. هذا أمر ممل.. تبًا لإذاعات هذه البلدة.. نهضت من مقعدي و اتجهت للراديو الموضوع على طاولة صغيرة بالقرب من باب الغرفة.. حسنًا سأقوم بتغيير المحطة..

****

تشوشات من جديد.. أصوات غير مفهومة.. تشوشات تتداخل مع أصوات.. ثم تشوشات أقل مع صوت أوضح نسبيًا في النهاية عند استقراري

على مقعدي.. وبدأت أسترق السمع..

بشكل ما أشعر أن الأصوات يمكن فهمها.. فهي من نبراتها لا تبدو غربية أو عبرية.. ربما هو مسلسل إذاعي عربي...

-"هنا..... فـــر..... نـــ....."

-"أمسك... عـــو..ل..."

ها هي بعض الحروف التي قد أكدت حكمي.. نعم هي محطة إذاعية عربية تعرض مسلسلًا ما.. كل مشكلتها هي إرسالها الضعيف وقد تداخلت لسوء حظي مع إذاعة الأغاني تلك..

لا أحب المسلسلات.. سأغير المحطة.. سأبحث عن مونت كارلو وإن كنت لا أحبها كثيرًا لأنها تعـــرض أغاني أقل مقارنة بإذاعات أخـــر....

-"أنت لمـــ...ا لا تحـــ...ر ؟"

-"..قتـــ.. ونا عـــ..ي أية... ال"

ثم صوت لهاث متقطع و أصوات متداخلة لم تنقطع تزامن مع صوت طلقات نارية متقطعة وصرخات ممزقة من شدة التشوشات.. ثم بدأت الأصوات المتداخلة من جديد..

* * * * * *

-"لن... صل... إذا فلتنا.... الصيف !...."

****

-"/*/....//....///.... /* *..... *//"جملة عبرية لم أفهم منها حرفًا.. علاوة على أنها متقطعة بدورها..

****

-"تـــ...اا... ل... م...."

****

أغلقت المذياع..

ما هذا المسلسل الذي يستمر ساعة ونصف؟!

و ما هذه الجمل العبرية المتداخلة؟

ربما كان مسلسل يحكي عن الكفاح الفلسطيني و هناك دور لضابط إسرائيلي.. أو....

تنبهت لصوت خطوات ثقيلة تقترب من الغرفة.. من ناحية الباب المغلق..

ولو حتى جاءت من ناحية النوافذ فلن أر القادم إلا لو أغلقت قابس الضوء الذي يجعلني لا

أرى من بالخارج بنفس السهولة التي يراني بها..

تملكني الرعب.. هل نسيت إغلاق البوابة؟

"طق.. طق.. طق" صوت طرقات رتيبة متصاعدة على الباب..

يا الله يا رحيم! أعتقد لو يوجد أحد بالكسارة لكان عم (أسعد) أخبرني بذلك..

بصوت واهن حاولت أن أداري رجفته، سألته:

-"م.. منن.. من؟"

-"افتح يا بني.. أنا (سيد)"

يبدو من صوته - رغم أنه عالٍ بشكل مزعج - كبير في السن بعض الشيء.. تناقص الخوف

لدي تدريجيًا.. وسألته مرة أخرى دون أن أقترب من الباب الموصد..

-"و من أنت يا عم (سيد)؟"

-"أنا غفير الموقع الليلي يا بني.. ألم يخبروك عني؟!"

****

تنهدت في راحة.. وتبسمت على ما حدث.. خطوت ناحية الباب في تؤدة في نفس الوقت الذي اخترق فيه صوت عم (سيد) حاجز الصوت:

-"افتح الباب يا بني.. أما أنك تود قضاء أمسيتك بمفردك فلن أحرمك من ذلك.. لا تكن مثل (أسعد) الذي يجتنب الجميع في تكبر جليّ.. فاجتنبه الجميع بدورهم.. أظن أنك لست مثله.."

قلت له أثناء معالجتي لقفل الباب:

-"حسنًا.. سأفتح لك على أية حال.. حتى لو لم تقل لي كل هذا الكلام.."

****

شيخ كبير.. كما توقعت.. ذو لحية خفيفة وشارب كث وكلاهما كافحا الشيب في بسالة حتى أحيل لونهما إلى الرمادي.. يرتدي معطف صوفي زيتي اللون.. وجلباب سماوي.. وقلنسوة بنية.. وكوفية صفراء.. تناسق ألواني شنيع..

لكن من قال أنني أتحدث إلى (جورج كلوني)؟!

ابتسم في ود قائلًا:

-"كيف حالك يا أستاذ... ما اسمك؟"

-"(كرم).. ولا تسبق اسمي بأستاذ.. فأنا في عمر أصغر أولادك."

-"لا يا باشا.. هذا لا يجوز."

قلت له باسمًا

-"لكني أفضلها هكذا."

سحبت له مقعدًا من ركن الغرفة وأشرت له بالجلوس قائلًا:

-"سأعد لك كوب من الشاي."

-"كنت سأسألك إذ كنت تدخن أم لا.. لكن رائحة التبغ تملأ الغرفة.. لا أعتقد أنك توقفت عن التدخين بمجرد رؤيتي."

ابتسمت لهذه الدعابة و لم أعلق.. أعطاني لفافة

تبغ ثم دس أخري بين شفتيه ثم طلب مني قداحتي..

****

-"يا أخي أنا حمدت الله على أن (أسعد) ترك الوردية الليلية.. (فوزي) الحارس الذي سبقه كان لطيف المعشر.. لكنه ترك العمل للأسف."

-"لِمَ لا تحب عم (أسعد) ؟"

-"أنا أقبل العمى و لا أقبله يا بني."

-"هل فعل لك شيء؟"

أطرق برأسه لأسفل وتنهد تنهيدة حارة وشعرت أنني ذكرته بشيء آلمه كثيرًا فتداركت الأمر قائلًا:

-"لم..."

قاطعني باسمًا في مرارة:

-"ربما سأخبرك يومًا ما.. لكن اعلم أن (أسعد) إنسان لا يمت للشرف بصلة.. وهو أقرب إلى إبليس بورعه و تقواه الزائفين.. لا تأمن له."

-"أنا لا أختلط معه بحكم ورديتي."

-"احمد ربك.. كن على حالتك هذه ولا تعطه الفرصة."

أردت أن أغير دفة الحديث، فسألته:

-"لِمَ لم أرك أبدًا يا عم (سيد) طوال الفترة الماضية ؟"

-"أنا أبيت في هذه الغرفة."

ثم أشار بيده تجاه الغرف المتراصة على الجانب

الأيمن من الكسارة والتي تبدأ بالمسجد.. سألته:

-"و أين هي؟"

-"الثالثة بعد المسجد."

-"و لِمَ لم أرك نهارًا؟"

-"أنام معظمه بحكم عملي.. و أخرج في المساء لأبتاع حاجياتي.. ثم أعود قرب المغيب لأحرس الكسارة."

-"غريب.. لم يحدثني أحد عنك."

-"أنا لا أخالط الكثير يا بني.. ولم أعرف طوال سنوات عملي من الأمن سوى أربعة أفراد.. لأنني ارتحت لهم كثيرًا.. و أنت الخامس.. وأظن أنك لا تختلف عنهم.."

****

(٣)

في الليلة التالية..

درجة الحرارة تقترب من الصفر، سكون رهيب مغلف بعتمة الليل وصفير الرياح و نباح الكلاب الضالة التي تملأ المساحات الواسعة المظلمة من الكسارة، والتي هي أصلًا شبه مفتوحة على الصحراء مترامية الأطراف إذ تعد ملجئًا مثاليًا لأي وحشٍ ضارٍ تائه.. زين المشهد أشجار ضخمة مزروعة عشوائيًا والتي كافحت ببسالة كل الظروف البيئية المحيطة بها حتى أصبحت بلا أوراق تقريبًا، اضف لكل هذا معجزة تواجد بعض مصابيح الإضاءة المتهالكة والتي لو استبدلت

بالشموع لكانت أفضل.. كل هذا يعطي الكسارة جوًا مميزًا لو رآه (إدجار آلان بو) ما تردد في كتابته في مشهد رعب مقيت..

وعلى أن أواجه كل هذا - بجانب عملي الأمني - بـــ... لا شيء بالطبع..

فأنا لا أثق في تلك العصا القابعة بغرفة الأمن والتي لا تستطيع حمايتي من فأر..

****

شعرت بملل رهيب لم تقتله لفائف التبغ.. ولا صوت الأغاني المنبعثة من الراديو ولا حتى رسوماتي التي أرسمها..

أين عم (سيد) من هذه الأمسية الكئيبة؟

غريب أمر هذا الحارس.. أيترك الحراسة في عهدة مبتدئ مثلي؟!

لملمت ما تبقي من شجاعتي.. وتناولت عصا الأمن المقدسة، التي لو رآها لص لسقط ميتًا من شدة الضحك..

وخرجت من غرفة الأمن و أنا أبتهل إلى الله أن يكون كلام (أسعد) مصيبًا بشأن الكلاب الضالة التي تملأ الكسارة.. وأن تكون ملتزمة به بدورها.. ولا تقترب من غرفة الأمن..

****

توجهت في خطى سريعة إلى حجرة عم (سيد).. طرقت الباب في أدب لكنه لم يجب عليّ..

طرقته مرة أخرى وناديت بصوت خفيض:

-"عم (سيد)، هل أنت نائم؟" لا حول ولا قوة إلا بالله.. أيكون قد مات؟!

لن أغامر باقتحام الغرفة لأجل هذا الهاجس.. فأجده قد أمسك بتلابيبي غير مصدق -بالطبع- أنني أردت الاطمئنان عليه.. ثم يكون طردي من العمل هو أقل ما سيحدث لي..

****

إذًا لا يوجد لدىّ سوى أدواتي المعتادة..

قلم الفحم.. الورق الأبيض.. الراديو.. الشاي.. السجائر..

عكفت على الرسم وسماع الأغاني الصادرة من محطة إذاعية لا أعلمها بلغة أجهلها..

ثم توقفت لبرهة عندما شعرت أن كل ما أنا فيه الآن يشعرني بلذة ما.. فرغم اضطرابي وشعوري بالرهبة ورغم أحاسيسي المضطربة.. إلا أنني أشعر بدفء غريب في هذه اللحظات الباردة يمحو أية محاولات للكئابة والتي من المفترض أن تُبعَث في نفسي في ظل هذه الأجواء..

لكن الأمر لم يطل.. بسبب تلك العادة اللعينة للراديو.. فقد زاد غياب محطة الأغاني عن كل مرة كما حدث بالأمس..

****

بعد عدة دقائق عادت الإذاعة من جديد.. لكنها ليست إذاعة الأغاني إياها.. بل تداخلات صوتية و تشوشات لا حصر لها..

فقمت باحضار الراديو بقربي لأسمع الأصوات المتقطعة الشبيهة بأصوات أمس..

أهو مسلسل يومي؟ لكن أي مسلسل هذا الذي يستمر أكثر من ساعتين؟

الساعة تشير للثانية و اثني عشرة دقيقة فجرًا.. أي مسلسل يأتي في هذا الموعد و المفترض أن الناس نيام؟!

حتى لو اختلف التوقيت عن البلد صاحبة الإذاعة.. فأنا أعلم أن الراديو لن تلتقط موجاته أبعد من الإذاعات الفلسطينية والأردنية والإسرائيلية.. وهذا لو تحدثت عن الإذاعات الغير معتاد وجودها..

****

ما زال المسلسل مستمرًا بعد مرور عشر دقائق.. ما الذي يرغمني على سماع هذا السخف.. فليكن مسلسلًا أو فيلمًا أو جنًا أزرقًا.. ليكن ما يكون.. سأغيـــ....

-"٦٥٥**/*/٥٥٥"

قيلت بالعبرية.. واضحة.. أشعر أنني سمعت نفس الجملة بالأمس.. بل هذا ما سمعته بالفعل..

المسلسل السخيف يعاد مرة أخرى..

نفس الحلقة.. يا للغباء!..

مسلسل يعاد بشكل يومي!

****

-"نومي ثقيل بعض الشيء.. هع.. هع.. هع!"

كان عم (سيد) هو من يحدثني منفجرًا.. أو ضاحكًا فلا فرق.. ثم ناولني لفافة تبغ قبل أن يردف قائلًا:

-"الشكر لك على اهتمامك بي."

هززت يدي كناية عن رفضي لما قاله:

-"لا تقل هذا.. هذا شيء بسيط.."

نظر إلى في حنو، ثم قال باسمًا:

-"ما الشهادة التي حصلت عليها؟"

سألته وأنا أشعل سيجارته:

-"وكيف علمت ذلك؟"

فانفجر ضاحكًا من جديد قبل أن يضيف:

-"هع.. هع..هع.. لا تحتاج مثل تلك الأمور

لعراف.. طريقتك في الحديث.. مظهرك العام.. أدبك.. رسوماتك التي تملأ جدران الغرفة.. حتى طريقتك في الجلوس والتدخين.."

هكذا الفرق في نظره بين المتعلم و الأمي.. التعليم مجرد شهادة.. أخبرته بأنني حاصل على (شهادة) في الفنون الجميلة.. وقد ذقت الأمرين في إيصال مفهومها له حتى اقتنع على مضض بجدواها.. أعلمته أنني ما جئت لهذه البلدة إلا بسبب انتقال أمي للعمل في فرع الشركة التي تعمل بها هنا ونظرًا لأني وحيدها فلم أتركها، كما أن أمي هي من أصرت على في قبول هذا العمل لأنها تريد الاطمئنان على - من وجهة نظرها- فمعاش أبي - رحمة الله عليه سيقطع- عندما أتم السادسة

والعشرين عامًا..

علمت بدوري بأنه لم يعرف للمدارس طريقًا.. فقط اكتفى أبوه بإلحاقه بكُتاب القرية.. الأمر المثير للدهشة أنه لا يعرف كيفية الصلاة! أيعقل هذا؟!

عرضت عليه أن أعلمه بنفسي.. فنظر إلى ساخرًا، وقال:

-"فاقد الشيء لا يعطيه يا بني..أنت شاب طيب.. لكن هذا لا يكفي وحده كي تعلمني الصلاة.. أنا أحسن الظن بالله.. وأظن أنه سيسامحني."

طرقت برأسي للأسفل وتذكرت أنني لم أصل منذ آخر امتحان في السنة النهائية بالجامعة.. معه كل الحق.. عندما أتغير أولًا فسأدعوه للتغيير..

لكن...

-"الأمر يختلف يا عم (سيد).. أنت طاعن في السن و... أعذرني على فظاظتي.. ما قصدته أن العمر أقترب على إغلاق أذرعته لك فتـــ...."

-"بل أكثر من هذا يا بني.. لكني - كما قلت لك - أطمع في مغفرة الله.."

****

(٤)

في الليلة التالية..

لم يجبني عم (سيد) كالعادة عندما طرقت باب غرفته..

فقد أردت أن يشاركني العشاء..تذكرت أنه

أخبرني بأنه لا يحب من يوقظه من نومه فآثرت الرجوع لغرفتي و لم أزد طرقاتي..

****

ها هي الثانية فجرًا.. المحطة اقتربت من الدخول في التشويش الكامل.. وبنفس النمطية أحضرت الراديو بقربي وانتظرت سماع هذا المسلسل اللعين.. لأعرف إذا كان سيعاد للمرة الثالثة أم لا..

تداخلات صوتية.. تشوشات.. ثم بدأت الأصوات تتضح تدريجيًا.. بل هي أوضح من المرتين السابقتين:

-"ستقتلوننا علـــ....ية حال.."

-"هل تفـــ.. الموت السريع.."

تشوشات وتداخلات صوتية لم تمكنني من سماع الجملة ثم....:

-"نعم فهذا أكرم لي"

صوت طلقة نارية ثم رجل يصرخ بصوت جهوري -في مصرية ذات لكنة غريبة أقرب للشوام، استطعت تمييز بعض الكلمات في صعوبة بسبب التشويش وليس بسبب اللغة واستنتجت الباقي:

-"من يريد ميتة سريعة فليخبرنا.. ولن يدفن مع رفاقه وسنتركه وجبة جاهز للكلاب الضالة تنهش منه كما تشاء.."

****

لقد شدني هذا الحوار.. انتظرت أن أسمع

المزيد.. لكن التشوشات عادت مرة أخر كالسابق.. بل بنفس قوة اليومين الماضيين.. بقيت متلهفًا مسترق السمع لعشر دقائق بلا جدوى..

فقمت بإحضار قلمي وورقتي وشرعت في الرسم كي أزجي الوقت قليلًا..

****

بعد نصف ساعة هدأت التشوشات بعض الشيء وتمكنت من سماع بضع كلمات:

-"نيه...يم....م... ا ل.. لن..."

-"كبك.. ين... حمي..."

-"لو أمكننا.... إحضار غيرهم.. ك... يرد..هم"

-"//***ي٨٨/***"عبري

-"/--/**"عبري

****

ثم حدث تشوش كامل..

غريب أمر هذا المسلسل.. أيتوقع المستمع لو كان المسلسل عربيًا.. أن يفهم الحوار العبري.. وحتى لو كان المسلسل موجه للفلسطينيين.. حتى لو كان فيهم من يفهم العبرية فمن المفترض أن يوجه لهم باللغة العربية.. والعكس صحيح.. فمن المفترض أن يوجه المسلسل بالكامل باللغة العبرية للإسرائيليين لو كان المسلسل إسرائيليًا..

يوجد شيء غير منطقيّ..

* * * * * *

انخفضت حدة التشوشات بعض الشيء ثم سمعت جملتين متتاليتين قبل أن يتبعهما التشوش من جديد:

-"//*٨٩***-/-"عبري.

-"٧٩٦&٦^^%0*"عبري؟

أقسم أن الجملة الأخيرة سمعتها -برغم التشوشات - بالأمس وأول أمس..

مازال المسلسل يعاد يوميًا! لم أر من يصر على الغباء بهذا الشكل..

****

كالعادة انفجر ضاحكًا بعد أن ناولني لفافة تبغ

-"هع.. هع.. لقد أخبرتك.. هع.. هع.. إن.. نو.. هع.. مي.. هع.. هع.. ثقيي.. هع.. يييل.. هع.. هع.. هع.."

أشعلت لفافتي التبغ ثم اتجهت إلى البراد الكهربائي، وأنا أقول:

-"بطريقتك هذه ستقلقني عليك.. كل ما في الأمر أردتك أن تشاركني عشائي..عامة لقد تركت لك نصيبك من الملفوف.."

شرع في الضحك.. وبشكل ما أشعر أن ضحكته هذه المرة صافية نابعة من قلبه ولم يضحكها منذ زمن.. ثم توقف قبل أن ينظر لي باسمًا، ويقول:

-"لم يهتم بي أحد هكذا.. لكني لست جائع.. أشكرك على أية حال.."

-"احتفظ بنصيبك.."

ثم رشف رشفة من كوب الشاي الذي صببته له، وأردف:

-"لا تشغل بالك بي يا بني.. لقد نُسي أمري منذ زمن.."

لا لن أسمح بإفساد هذه السويعات غمًا وكدرًا.. فقلت له باسمًا لأغير دفة الحديث:

-"ما رأيك لو رسمتك؟"

****

بعد ربع ساعة ناولته صورته، قائلاً في مرح:

-"ها هي صورتك.. إنها أجمل من الحقيقة لو أردت رأيي.."

ابتسم في وهن ثم تناولها.. قبل أن ينظر لها مليًا، ويقول:

-"لا تعلقها على جدار الغرفة كأخوتها.."

-"لن أعلقها بالتأكيد.. هذه ستحتفظ بها أنت.."

-"أخشى أن أفقدها..سأخبرك شيئًا.. عندما يحين موعد سفري لبلدتي سوف آخذها منك.. اتفقنا؟"

-"حسنًا.. لكن لَمَ لا تريديني أن أعلقها في الغرفة؟"

-"بهذا سيعلمون أنك جلست معي.."

سألته في استغراب:

-"وماذا في ذلك؟"

-"ربما سبب لك ذلك مشكلة ما.. فأنا أعلم أنك من المفترض أن لا تختلط بأحد.. كما كونك ترسم شخصًا بعينه فهذا يعني أنه كان جالسًا أمامك.. وبالتأكيد لن تكون منتبهًا لعملك وقتها.."

-"لكنهم يعلمون أني مولع بالرسم.."

-"لكنك لم ترسم أية شخصية بالكسارة يا بني.. لا أريد أن أسبب لك أية أزمة.. هذه لقمة عيشك.. الحرص أولى.. ارحني وعدني ألا تعلقها.."

****

تناولت ثمرة يوسفي وناولتها له فرفض فقلت له

-"لم أعهدك سوي مدخنًا.."

قال لي باسمًا:

-"والشاي.. أنسيت يا فنان؟"

-"أهذا شيء يذكر يا عم (سيد)؟"

شرعت في تقشيرها، وأنا أقول:

-"أتعلم اليوم سمعت شيئًا غريبًا على الراديو.. أظنه مسلسل يعاد يوميًا على محطة ما جاهدت كي أعلم اسمها ولم أنجح.."

-"وما الغريب في الأمر؟"

-"المسلسل يعاد بشكل دائم.. الذي يعرض اليوم يعرض غدًا وبعد غد.. كما أن وقته أكبر من كونه مسلسل.."

نظر لي في حيرة، وقال:

-"لم أفهم مقصدك؟!"

-"كأنك تشاهد فيلمًا بشكل يومي.. وكل يوم تشاهد نفس الفيلم.. أفهمت؟"

أطلق ضحكة عالية، وقال:

-"أنت قلتها يا بني.. فيلم.. أنت تتحدث عن فيلم وليس مسلسل.."

-"يا لغبائي! لكن أي فيلم هذا الذي يعرض يوميًا.. انتظر.. سأسمعك المحطة إياها.. لعل المسلـــ... أقصد الفيلم ما زال مستمرًا."

قمت بتشغيل الراديو.. و الذي كان متوقفًا عند محطة الأغاني التي تعرض الفيلم المشوش.. ثم..

لا شيء.. لم أسمع سوى أغنية أجنبية.. أحسست بالحرج أن أترك هذه المحطة تبعث بالأغاني الأجنبية التي لن يفهمها الشيخ سوي أنها نوع من خلاعة شباب هذه الأيام.. ففصلت الكهرباء عن الراديو..

****

(٥)

حدث في الثلاث ليالي التالية..

في الليلة الأولى.. انتظرت غياب المحطة الإذاعية حتى جاء موعدها..

الثانية فجرًا..

أحضرت الراديو بقربي وانتظرت سماع الأحداث.. تشوشات و تداخلات صوتية.. ثم..

أصوات واضحة.. واضحة بمعني الكلمة بل هي بنقاء محطات التلفاز..

****

يمكن قول أن كل ما سأذكره هو ملخص ما سمعته خلال الثلاث ليالٍ..

-"لن أحفر" رجل ١

-"أتريد أن تموت ميتة سريعة؟" رجل ٢

-"لا فرق" رجل ١

صوت طلقات نارية ثم تبعها صوت الرجل ٢ محذرًا:

-"أمازلت على رأيك ؟"

إذًا كانت الطلقات النارية السابقة في الهواء من

أجل التهديد أو ربما كانت بقرب الرجل ١ من أجل التهديد..

-"نعم فهذا أكرم لي.."

و لم تمر ثوان إلا و سمعت طلقة نارية تبعها صوت الرجل ٢ في صرامة:

-"من يريد ميتة سريعة فليخبرنا.. ولن يدفن مع رفقائه وسنتركه وجبة جاهز للكلاب الضالة تنهش فيه كما تشاء.."

-"احفروا.. هيا.. أنتم تضيعون وقتنا" هكذا صرخ بها رجل ٣.

****

تشوشات من جديد لم تبق سوى دقائق ثم قوي

الإرسال مرة أخرى.. أصوات حفر وتكسير بأدوات يدوية بدائية:

-"أسندخل الجنة؟!" رجل ١ قالها هامسًا برغم لهاثه:

-"أظن هذا"رجل ٢ قالها بخفوت..

ويبدو أن هذا الحديث الدائر لا يريدون أن يسمعه أحد.. الأمر واضح.. هؤلاء هم من يحفرون.. لذا كان لهاثهم يتقطر من الحروف:

-"كنت أعتقد أن من هم على حافة الموت يعلمون مستقرهم من الآخرة"رجل ١.

-"أنا أشعر أننا سندخل الجنة" رجل ٣.

-"و كيف ذلك ؟ نحن لم نحارب من الأساس..

لسنا شهداء.. لم ندافع عن أرضنا أو عرضنا أو مالنا أو أنفسنا" رجل ١.

-"نحن لم نفعل شيئًا حقيقيًا في الحرب سوى حفر قبورنا بأيدينا" رجل ٤.

-"لا.."

قالها رجل ٣ بشيء من الحدة.. ثم تابع:

-"الأعمال بالنيات.. نحن لم نتسبب في الهزيمة.. لقد أحضرونا هنا من أجل الحرب.. من منكم لم يُفاجئ بقرار الانسحاب.. نحن نريد الدفاع عن أرضنا.. لكن... لكن.."

لم يستطع إكمال جملته فقاطعه رجل ٢.

-"ولكن ماذا؟"

-"لا أعرف.. كل ما أعرفه أننا لو لم نكن شهداء فمن سنكون؟ "رجل ٣.

-"أرجو أن يتقبلنا الله من شهدائه.. لا أريد أن أخسر الدنيا و الآخرة معًا" رجل ٤.

-"أرجو أن يغفر لي الله.. لقد أدمنت الخمور.. تعددت علاقاتي المحرمة مع النساء.. أعتقد أنني خنت أمانات وحرمات كثيرة.. باختصار أنا ذو ذنوب كرمال تلك الصحراء.. رغم عمري الذي لم يتعد الخامسة و العشرين" رجل ١.

-"من سيحاسب بذنبنا.. بأي ذنب أموت، لا يوجد سبب لموتي سوي أنني سقت إلى هنا للحرب.. أنا عمري تسع عشرة سنة.. جميعنا نريد الحياة.. لكني بالذات أريدها بشدة.. أنا لم أعش

حياتي بعد.. كنت أتمني أن أتزوج وأكافح لصنع أسرة.. كم أود لو أرى أمي الآن و احتضنها"

رجل ٤.

-"أحسدكم على ثبات عقولكم! بالله عليكم كيف تتمتعون بهذا الوعي والقدرة على التحدث وكأننا سنعيش ألف سنة.. يا سادة سنموت بعد دقائق.. فليتب كل واحد منكم إلى الله و يدعو أن يتقبله من الشهداء وليتلوا ما يحفظه من قرآن، أو يصلي إلى الله لو كان مسيحيًا.. اغتنموا هذه الدقائق الأخيرة" رجل ٥.

-"هل سيعلمون بأننا هنا؟ هل سيعلمون بأمرنا؟" رجل ١.

-"لا أعتقد.. من يتركك لتقتل على يد

أعدائك بهذا الشكل فلن يفكر في انتشال جثتك.." رجل ٢.

****

تشوشات جديدة تعمل كفاصل بين كل مشهد..

-"الحرارة تشتد.. سنموت يا (فتحي).. لا أمل.. الجبال و الرمال تحيطنا.. والشمس تكوينا بحرارتها" رجل ١.

-"لن نصل" رجل ٢.

-"ماااااااء" بلسان ثقيل رجل ٣.

-"تجلدوا.. نحن لم نسر سوي ثلاث ساعات.." رجل ٤.

-"أواهمون أنتم؟ كيف سنعرف الطريق وسط هذه الصحراء؟" رجل ٢.

-"لقد باعونا.. هناك خائن بكل تأكيد.. كيف يصدروا أمر الانسحاب العشوائي هذا ونحن لم نحارب من الأساس.." رجل ٤.

-"لا تفكر سوى في نفسك وسلاحك يا رجل.. هكذا جائت الأوامر.." رجل ١ بسخرية.

-"إذًا سأحاسب بتهمة التفريط في سلاحي.." رجل ٣.

-"هذا لو وصلت لأقرب ثكنة عسكرية أصلًا.. أتعلمون ما الذي أتمناه الآن؟" رجل ١.

لم يجبه أحد.. فواصل رجل ١ حديثه:

-"ياه لو عرفت من المتسبب في كل هذا.. من الذي ألقي بنا هنا دون حرب.. ومن الذي أصدر أمره بأن ننسحب بهذا الشكل المهين أمام الصهاينة.. ثم ألقيه في أعمق نقطة بسيناء وفي قلب الصيف وحده وأعطيه سلاحًا.. وآمره بعبور الصحراء الشاسعة بسلاحه دون طعام أو ماء حتى يصل لأقرب ثكنة عسكرية بعد القناة.. ليذوق ما نعانيه الآن.." رجل ١.

-"ورغم هذا سيكون محظوظ.. فهو لن يواجه سوى خطر الذئاب و الثعالب والعطش والجوع والحرارة العالية.. أما نحن فنواجه كل هذا بجانب جيش الصهاينة الذي يحاصرنا.. أشعر أنني سأصادفهم.." رجل ٣.

****

وهذا ما حدث بيني وبين عم (سيد) خلال تلك الفترة..

-"ليس فيلمًا يا عم (سيد)!"

-"وما الذي يجعلك متأكدًا؟"

-"الأحداث متكررة.. الأصوات.. المدة الطويلة التي تستغرقها الأحداث.. كل شيء يدل على ما أسمعه حقيقي تمامًا لكني لا أعلم له تفسيرًا.. الأمر يستمر كل ليلة.. حتى أنني جربت أن أغير المحطة أثناء انبعاث الأصوات.. و تخيل ما حدث.. لم تنفصل الأصوات قط عندما غيرت الموجة.. أشعر أن هذا نداء لي.. نداء من عالم آخر.."

****

في الليلة الأخيرة طلب مني قضاء الوردية النهارية محل (أسعد) ليومين متتاليين - بجانب ورديتي الليلية - على أن يعوضا لي في الشهر القادم بأن يحل محلي ليلتين متتاليتين..

ربما كانت هذه فرصتي.. لأعلم الحقيقة..

****

(٦)

يمكنني ترتيب الأحداث بعد ما علمته...

****

"هناك مصلحة مشتركة بين الشركاء في شركة الأمن و بين الكسارة.. الكسارة لا تحتاج لحراس أمن بل تحتاج دائمًا للتسهيلات في التراخيص

المرورية والحكومية وكذا بعض الإجراءات الحكومية المعقدة وترغب بشدة فيمن ينهي لها تلك الأمور في سرعة.. واللواء السابق رئيس مجلس إدارة شركتك هو خير من يفعل ذلك.. وبالتأكيد لن يكون هذا بدون مقابل.. أظن أن الأمر قد صار جليًا لك.."

هكذا أخبرني عم (نعيم) المزارع الخاص بالكسارة و قد زاد على ما قاله:

"وبما أن الطرفين يتظاهرون بالشرف.. فلا يمكن أن يقبل اللواء بثمن خدماته.. لكنه يرحب بمبلغ شهري مقابل حراسة الكسارة أمنيًا.. أفهمت الآن؟"

****

يمكنني تخيل هذا الحديث الذي دار بين (فايز) مشرف العمال و(سامي) مسئول التوظيف في شركة الأمن التي أعمل بها وابن اللواء رئيس مجلس إدارة الشركة...

"ألا ترى أنه يكون قد علم شيئًا؟"، قالها (فايز).

"لا أعتقد.. الكسارة و ما يحدث فيها أمر لا يعلمه سوى من يتعامل معكم بشكل مباشر.. أو من مكث في المدينة منذ زمن.. فـــ....."، أجابه (سامي).

قاطعه (فايز):

" بالتأكيد أعلم هذا.. ما قصدته هو أن يكون قد علم بالأمر ممن يعلم.. أي أنه قد صادف أحدهم

و أخبره بحقيقة ما يحدث.."

"اطمئن.. فرغم أنه مشرف على عامه الأول في هذه البلدة إلا أنه لم يختلط بأبنائها.. الرجل يعمل أكثر من اثنتي عشرة ساعة.. فأين له بالوقت كي يختلط؟ كما من يعمل معه بالقرية أغلبهم مغتربين وأبناء البلدة في أماكن عمل مختلفة عنه.. وحتى لو كان أحدهم يعرف فما هي المناسبة التي سيخبره فيها.. لاحظ أنه لم يعلم بأنه سينقل إليك إلا هذه الليلة وفي مقر الشركة أي أنه ولآخر لحظة في القرية لم يعلم بأنه سينقل لموقع آخر.. كما أنه لو كان يعلم بشيء لرفض الانتقال بشدة بأية حجة.. لكنه لم يعترض.. أنت ستراه و ستعلم كم هو فطري الطباع.. لا يعلم شيئًا عن البلدة سوى

الطريق إلى بيته.."

****

"ألا تعلم أنه توجد هنا مقبرة جماعية لجنود مصريين استشهدوا أثناء اجتياح الصهاينة لسيناء في عام ٦٧م.. يقال أن حجمها كبير للغاية وتحتل جزءًا كبيرًا من الكسارة يمتد من ما قبل البوابة بقليل إلى الطرف الشرقي بالقرب من غرف العمال.. أي معظم الجانب الأيمن من الكسارة.." هكذا أخبرني عم (نعيم).. حاولت أن أهضم ما قاله و أنا أردف ذاهلًا:

"أي يقع في نطاقها غرفة الأمن؟!"

****

"بالطبع.. كما توقعت أنت.. (سيد) متوفي منذ

سنتين تقريبًا.. مات في حادث.. لقد صُعق بالكهرباء بالقرب من غرفته.. كان حادث إليمًا".. هكذا زاد عم (نعيم) من الشعر بيتًا!

****

قابلت (سامي) في مكتبه في مقر شركة الأمن بالأمس.. طلبت منه الاستقالة و أفهمته أنني أعلم ما يدور بينه وبين (فايز) -مشرف العمال- بالكسارة.. لم تثمر مقابلتي له عن شيء.. ويمكن تلخيص كل ما حدث في جملة واحدة قالها –أو بعبارة أدق- صاح بها في غضب عارم:

"سأخبرك بما لدي.. ليس في يدك شيء تفعله.. وإن فعلت فلن يصدقك أحد.. لأنه ببساطة لا يوجد شيء بيني وبين مشرف العمال.. ولكي

تتأكد من صدق كلماتي.. فلن تنقل من موقعك.. وستبقى فترة العشرة أيام.. و هذا لأجل أن تفشي الأسرار كما يحلو لك.."

****

(٧)

هكذا أنا مضطر للبقاء لفترة عشرة أيام مع أصوات القتلى، ومع شبح عم (سيد) الذي يحب التدخين كشكمان السيارة..

كيف أتخلص من هذا المأزق؟ حتى لو أبلغت الشرطة فِبِمَ أخبرهم؟ و هل يصدقونني؟

أسيحفرون الكسارة لمجرد أنني سمعت أصوات الشهداء على الراديو؟! ولو قلت لهم هذا هل سأترك دون أن أتهم بالجنون؟

لا حيلة لدي.. سأستسلم للأمر ولن أفعل شيئًا واكتفي بقضاء تلك الأمسيات المقيتة حتى أحصل على إيصال الأمانة و أسلمهم ملابس العمل اللعينة ثم أذهب بلا رجعة..

ولكن كيف سأقضي تلك الورادي بعد ما علمته؟!

أأحاول أن أغلق الباب على نفسي ولا أسمح لأحد بالدخول.. أم أحافظ على عاداتي كما هي وأستمع لأصوات القتلى وأسامر الأشباح حتى تنقضي العشرة أيام؟

****

أظن أنه لا خطر من الانخراط في الأحداث كما كنت أفعل..

كما أن الشيء الإيجابي في كل هذا أن لو كان يوجد ضرر لأصابني في السابق ولن ينتظر كل تلك المدة..

الأفضل أن لا أغير طريقتي فجأة كي لا يحدث لي ما لا يحمد عقباه.. فربما سلامتي ناتجة عن علاقتي الجيدة بما يحدث وبالتأكيد سيختلف الأمر لو تغير أسلوبي..

كلها عشرة أيام..

فقط عشرة أيام، وينتهي كل هذا..

عشرة أيام وينتهي هذا الكابوس..

****

أطرق عم (سيد) رأسه لأسفل، ثم قال في

حزن:

-"إذًا فقد انتهي وقتنا الجميل.."

توقف لبرهة ثم تابع في حدة أقرب للبكاء:

-"لِمَ فتحت لي الباب اليوم إذًا وأنت تعلم حقيقتي؟ لَمَ وافقت على دخولي غرفتك؟"

كانت أطرافي ترتعش في هذه اللحظات.. وشعرت أنني على وشك الإغماء.. سيقاني لم تعد تتحمل وزني، فجلست على المقعد وأنا أدعو الله أن يخلصني من هذا الموقف.. وددت لو كان معي مسدسًا لأضرب نفسي بالرصاص لأجل فتح الباب له..

تلوت كل ما حفظته من قرآن في خاطري.. حتى نظر لي عم (سيد) بحنو قائلًا:

-"لا تخف يا بني.. أنا لا أملك نفعًا ولا ضرًا لأحد.. أنا أحبك.. صدقني أحبك كولدي الوحيد.. ولو كنت أستطيع إيذاء أحد فآخر من سأسبب له السوء هو أنت.. ولكي أثبت لك حسن نيتي.. فبإمكاني الخروج فورًا من الغرفة وعدم مخالطتك أبدًا.."

قلت له بتوتر وقد زال عني الخوف بعض الشيء:

-"لا ابق كما أنت.. لكنها.. لكن.."

-"أعلم هذا.. الأمر غريب ولم تستسغه.. صدقني ولا أنا.. أنا لم أصادق بشرًا من قبل من ساعة موتي بمثل ما صادقتك.. ولم أتعلق بحب أحدهم بمثل ما أحببتك يا بني.. اطمئن.. ولا تخف

مني.."

ثم نظر إلى طويلًا فلم أجبه.. فنهض قائلًا:

-"إذًا هو الفراق.. أتمنى لك كل الخير يا (كرم).."

أردفت في سرعة بنبرة حانية:

-"لا.. أرجوك.. ابق كما أنت.. لا تغضب مني.. لقد توترت من فرط المفاجأة فقط.. هذا كل ما في الأمر.."

جلس من جديد ثم نظر إلى بحنو قائلًا:

-"ألا تريد أن تعرف الحقيقة؟ سأخبرك.."

ثم تنهد في حرارة و استطرد شاردًا:

-"أتهمني بالسرقة.. وقد حضرت الشرطة

وألقت القبض على في وضح النهار.."

التفت إلى في خفة و الدموع تترقرق من عينيه، قائلًا في توسل:

-"أنا لم أسرق يا بني.. (سيد حماد) طاهر اليد طوال عمره.. لم أمد يدي على شيء.. بل هم.. تحت مرأى و مسمع (أسعد).. من قال أن الخردة يمكنك أخذها وبيعها كما تشاء لمجرد أن صاحب الكسارة يفقه القليل عن أصول العمل ويلقي بالمسئولية كاملة على المشرفين؟ عندما رأيت هذا اعترضت طريقهم.. وفطنت أنهم كانوا يفعلونها دائمًا بمجرد أن أذهب لتفقد المساحات الخلفية من الكسارة.. والتي تأخذ نصف ساعة عند هذا يبلغ (أسعد) (فايز) بأن الأمور على ما يرام.."

توقف قليلًا كي يستعيد بعض هدوئه.. وتابع:

-"كان يحضر ما سيسرقه في أواخر المساء ويضعه في غرفة الإدارة.. والأمر لا يستغرق دقيقتان لدخول و خروج السيارة لتحمل الخردة من الإدارة التي تقع بالقرب من البوابة.. ولم يتوقعوا ظهوري تلك الليلة.. تسمروا أماكنهم (فايز) و(أحمد) و(أسعد) الذي كان هذه الفترة المشرف الليلي.. حاول (فايز) أن يتماسك وأوحى لي أن هذا لأجل عمل هام في أحد المواقع في الصباح.. لكنني أعلم عمل الكسارة و أعلم أن ما من خردة يمكنهم استخدامها في أي موقع كان.."

ثم توقف لبرهة عن الحديث فلم أشأ أن أحثه على المتابعة.. إلا أنه تابع في سرعة وقد عادت

الدموع تتلألأ في عينيه لتصاحب نبرته المتهدجة:

-"لم يصدقني العسكر عندما أخبرتهم بذلك.. ولم يقتنعوا بأن رأس الموتور وبعض الخردوات المفقودة والتي وجدتها العمال في غرفتي صباحًا وُضعت لي دون أن أدري.. وقد علمت أن (أسعد) هو من أستغل موقعه وخبأهم أثناء ورديته بعد ما حدث بيني وبينهم.. لقد أرادوا أن تلفق لي التهمة قبل أن أفكر في فعل أي شيء يضرهم.."

تنهد في حرقة قبل أن يوجه رأسه ناحية النافذة.. ويتابع في شرود:

-"مكثت في المحبس أربع ليال إلى أن تنازل الأستاذ (سامر) عن البلاغ المقدم ضدي بصفته مالك الكسارة.. مقابل أن ألملم حاجياتي و أغادر..

و لم يقتنع بتاتًا ببراءتي.."

أشعل لفافة تبغ ثم سحب منها نفسًا عميقًا وواصل النظر من النافذة.. متابعًا بنفس شروده:

-"كان الوقت صباحًا..

لم أر شيئًا أمامي من فرط ما أشعر به من مرارة الظلم واليأس وشماتة الأعداء والسمعة السيئة التي ستصحبني.. وعجزي التام عن الدفاع عن نفسي..

دلفت إلى الكسارة و أنا أخطو بخطوات بطيئة نحو غرفتي.. أتجاهل سبة هذا.. وقذف ذاك.. حتى أنني أهملت مواساة (جابر) المستميتة لي فهو الوحيد الذي لم يصدق أنني لص..

لم أعر لأي شيء اهتمامًا وأنا اتجه لغرفتي.. بنفس الكيفية التي لم أنتبه فيها لسلك الرافعة

العاري المتصل بين الورشة وحوض الماء..

ولم أدر إلا وأنا أري نفسي جثة غارقة في حوض الماء المشحون بآلاف الفولتات.."

أجفلت وهممت أن أقول شيئًا إلا أنه نظر لي في تبسم.. وقال:

-"سأعيد لك المشهد الأخير كي تعيه.. تعرقلت في السلك العاري من بعض أجزائه المرفوع عن الأرض على مستوي أفقي لحوض الماء.. أثناء سقوطي في الحوض سحبت السلك معي بفعل وزني والذي لم ينفصل عن القابس الكهربائي.. ثم...

تحول حوض الماء لبركة من الفولتات.. لم يتحمل جسدي الواهن كل ما حدث له.. فانفصلت عنه.. ستسأل نفسك كيف أصبحت

هكذا؟ حقيقة لا أعلم.. كل ما أعلمه أنني انفصلت وأصبحت على هذه الحالة بعد سقوطي في الماء مباشرة.. علمت أنهم أعلنوا موتي لكني لم أمت.. أشعر أنني لم أمت.."

سألته في توتر:

-"و التدخين؟ أنت تدخن.. كيف؟"

أطلق ضحكة باهتة.. ثم قال:

-"نعم.. إنها من العادات المحببة لي.. ولا أفعل شيئًا غيرها سوى تناول الشاي لو كنت تهتم.. ولا أعلم كيف أفعلها لو أردت معرفة هذا.."

دارت فترة من الصمت قطعها عم (سيد) بقوله:

-"الآن وقد علمت الحقيقة.. سترحل بالتأكيد.."

-"ليس الآن.. ولكن بعد تسع ليال.."

-"لقد ارتحت لك كثيرًا يا بني.. ويعز على فراقك.. لكني أتفهم ما تمر به.. من الطبيعي أن لا تقبل بقضاء أمسياتك مع من هم مثلي.."

تجاهلت ما يرمي إليه عندما ألح على هذا الخاطر.. فسألته:

-"كيف لم تؤذ أحد ممن أذوك؟"

-"لا يمكنني فعل شيء سوى الظهور.. وصدق أو لا تصدق.. لا يمكنني الدخول لأية غرفة إلا بعد أن يأذن لي وأن أعلن قبلها بصراحة عن نفسي.. لا أعرف شيئًا غير ذلك.. لكني لا أنكر أنني لو

علمت الطريقة التي سأضر بها هؤلاء فسأفعلها بالتأكيد.."

ربما الأمر صار غريبًا..

ربما قاربت على الجنون.. أو أن هناك شيء قد أصابني..

فقول أن حديث عم (سيد) ربما يهون أمر التسع ليال الباقية لهو قول غير مألوف..

لكنها الحقيقة.. حقيقة ما أشعر به.. وما الضرر فيما يحدث..

شبح مسالم.. يحب الصحبة.. يرتاح إلىّ.. أبرز عيوبه التدخين الشره..

إذًا لا مشكلة في الأمر..

****

(٨)

في الوردية النهارية التالية..

جاء إلى (فايز) - مشرف العمال-.. وبعد تجاذب أطراف الحديث بيننا وعلمه أنني لا أعلم شيئًا قد يضره بعد أن استفسر عن ما حدث بيني وبين (سامي).. قال لي:

-"أنت لا تعرف (نعيم).. هو من أصحاب المزاح القاسي.. يمكنه بناء الأوهام من بضع حقائق في ثواني.. و عامة ليست هذه أول مرة.."

بقي السكون مسيطرًا لثوان قبل أن يتناول (فايز) كرسيًا خشبيًا و يضعه على مقربة من باب غرفة الأمن و يجلس عليه، ثم أشعل لفافة تبغ..

وتابع قائلًا في هدوء:

-"سأخبرك بالحقيقة كاملة.. هناك مقبرة قريبة من الكسارة لكنها ليست داخل الكسارة وبالتأكيد لا تمت لجنود ٦٧ بصلة.. شبح (سيد) هراء..كل ما في الأمر أن هناك حارس أمني ليلي مثلك.. رأى طيفًا بجوار غرفته وكان هذا بعد موته بفترة قليلة فظنه هو.. فاشتعلت الإشاعات.. ما لا تعلمه أن ذلك الحارس كان مدمنًا للمخدرات.. أظنك تدخن فقط.. أي أنك مازلت محتفظًا بعقلك.."

صمت (فايز) برهة.. قبل أن يضيف:

-"تخيل أن تكون أنت القاتل.. أو لك علاقة بموته.. أستمكث في مكان قريب من حادثة موته؟.. بل أسترضى أن تكون بالقرب من بيته؟ ناهيك لو

علمت أن شبحه موجود فاستقالتك ستكون حتمية وقت إذًا.."

****

-"و الصورة التي رسمتها له.. والتدخين.. أنه يدخن كالبركان.."

كنت أحدث صديقي (رامز) عبر الهاتف النقال.. والذي باعدتني عنه المسافات.. تخرجنا سويًا من نفس الجامعة و نفس الكلية.. هو يختلف عني في كونه ذو دراية ببعض الأمور المعقدة نظرًا لاطلاعه وحبه النهم للقراءة في كثير من المجالات ولم يكتفِ بتخصصه..

-"لن تصدق أن هذه هلاوس.. أو حالة من حالات الشيزوفرينيا أو ما يطلق عليه الفصام.."

هكذا أجابني في سرعة.. قبل أن يتنهد في شيء من الملل.. ويتابع:

-"لن يخرج عن ذلك.. صدقني.. من الممكن أن تكون قد رأيت صورته في مكان ما.. فخزنها عقلك الباطن الذي صور لك هذه القصة.. بنفس الكيفية التي صور لك فيها قصة أحداث المقبرة الجماعية على الراديو.. كل ذلك لن يخرج عن إطار الهلاوس السمعية والبصرية التي جعلتك أضحوكة وسط العمال.."

-"والشاي.. ولفائف التبغ التي يدخنها (سيـــ....)"

قاطعني في شيء من الحدة:

-"بإمكانك أن تحصي عدد لفائف التبغ الخاصة

بك.. وستجد أنها تتناقص باستمرار كلما تسامرت مع شيخك المزعوم.."

سألته في دهشة:

-"لم أخبرك أني صرت مدخنًا"

-"و كيف علمت أنا بالأمر إذًا يا عبقري؟"

****

(٩)

في عالم الروايات و الأفلام.. من يمر بمثل حالتي فسيكون لديه خيار الطبيب النفسي والذي سيلجأ له عاجلًا أم آجلًا.. خيار رائج طالما كانت الرواية تدور في مكان حيوي.. كالقاهرة أو الإسكندرية.. أما هنا فلا وجود له على الإطلاق..

****

أحقًا ما أمر به مجرد هلاوس؟

إذًا كيف علمت بتفاصيل المقبرة الجماعية من الراديو؟ وكيف علمت بتفاصيل موت عم (سيد) حتى من قبل أن يخبرني أحد؟ وكيف رسمته وأنا لم أره قط؟

كيف أقبل أن يكون كل ذلك من نسج خيالي؟

والأهم؛ لماذا لا أهلوس إلا وأنا في الكسارة في الوردية الليلية بالذات.. سواء كانت هلاوس سمعية أو بصرية؟

ولو كان ما أراه حقيقة، فلِمَ لم يره أحد سواي؟

ولِمَ ينكرها الجميع؟ أيهما الحقيقة يا ربي؟

****

ها هي خطوات عم (سيد) التي أعلمها جيدًا تقترب من الباب..

****

حسنًا.. أكبر الظن أنني لن أغير طريقتي فجأة كي لا يحدث لي ما لا يحمد عقباه.. فربما سلامتي ناتجة عن علاقتي الجيدة بما يحدث وبالتأكيد سيختلف الأمر لو تغير أسلوبي..

****

صوت طرقات على الباب مصاحبة لصوت عم (سيد) المميز..

****

كلها تسع ليال...

****

أفتح له و أدعوه للدخول.. فيبتسم و يجلس في مكانه المعتاد..

****

فقط تسع ليالٍ و ينتهي كل هذا..

سأرحل تاركًا كل شيء يذكرني بالكسارة..

برادي الكهربائي.. الورق الأبيض.. قلم الرصاص.. قلم الفحم.. الراديو..

والأخير سأتركه دون أدنى لحظة ندم أو تراجع.. ربما سأترك الشاي والسكر والسجائر

أيضًا..

فقط تسع ليالٍ وينتهي كل هذا..

تسع ليالٍ وينتهي هذا الكابوس...

****

(١٠)

أنهى (محمود) -أو (حليم) كما يدعوه أصدقائه- قصته (راديو).. كان بادي التوتر، بدا ذلل واضحًا من نقرات أصابعه على الطاولة، علاوة على تعديله لوضعية ياقته كل بضعة ثوانٍ..

تناول رشفة ماء من الكوب الموضوع أمامه، ثم أخذ يستمع لأحد الحضور.

اعترف الضيف بأن القصة أمتعته كسرد، وإن كانت أحداثها متوقعة إلى حد كبير، أي شخص سيتنبأ من منتصف القصة تقريبًا أن المسألة تتعلق بأشباح، كما أن فكرة "الأشباح" نفسها صارت لقمة هرست مضغًا.

أومأ (حليم) برأسه، ثم أجاب بشبح ابتسامة

بدوره:

-"عالم الغرائبيات والميتافيزيقيا مفتوح للجميع، الأشباح ليست حكرًا على أحد، هناك كتاب مشهورون تحدثوا عن الأشباح ولم نقل أنهم يقلدون بعضهم.. المعيار الحقيقي للكتاب من وجهة نظري هو- هل قدم جديدًا أم لا؟ هل تميز بأسلوب خاص أم لا؟"

أخذ الهدوء يتسلل تدريجيًا إلى الأجواء، فنظر (حليم) لصديقيه داليا ومصطفى:

-حان الدور على أحدهما، أخال أنه أنت يا داليا؟

قبل أن تتفوه داليا بحرف، خفتت الأصوات تدريجيًا، مع نهوض رجل من وسط المقاعد، ظهر

كأنه بزغ من العدم.. فلم ينتبه إليه أحد سوى الآن.. رجل يرتدي جلبابًا وعباءة، ويتقدم نحو المنصة ممسكًا بلفافة من الورق المقوى..

اتجه نحو (حليم) بالذات، فأودع اللفافة الكبيرة في يده، ثم ربت عليها بحنو، قائلًا:

-"نسيت هذا".

تسمّر (حليم) في مكانه ناظرًا إلى عيني الشيخ التي تفيض سعادة وحنان أبوي.. قبل أن يغادر الأخير في خفة نسمة صيفية..

تسلطت العيون على (حليم) تطالبه بتفسير، فبذل مجهودًا كي يتجاهلهن جميعًا.. ويقوم بفتح اللفافة مباشرة.. ليجد بداخلها.. راديو!

****

زوروستر

داليا مصطفى صلاح

هل جاء دوري الآن؟ في الحقيقة، لا أعرف من أين أبدأ كلامي، فلست معتادة على الحديث أمام أحد!

اسمي داليا مصطفى صلاح، وأحب استهلّ بإهداء ما كتبته إلى بهاء...

مقدمة:

هل يمكنك أن تكره أحدًا بشدة وفي ذات الوقت لا تقدر على الحياة دونه؟

هل من الممكن أن تخاف شخصًا، ولا تشعر بالأمان إلا معه؟

كنت أعرف أنني بدأت أجن، لا يمكنني الابتعاد عنه، ولا تخيل حياتي بدونه.

أمعنت النظر إليه، كان كالملاك النائم.

ضحكت ساخرة من تلك الفكرة ، فأنا أكثر الناس دراية بالحقيقة.

يجب أن أقتله، هذا هو الحل الوحيد.

سأقتله، ثم أقتل نفسي، سأقتله لأحميه وأحمي الجميع منه، ثم ألحق به، فلا معنى لحياتي بدونه.

****

١. البداية:

موقف بسيط هو كل ما يشغل داليا، فدونته - بدقة- في كل أوراقها، موقف شعرت أنه حرك داخلها أمورًا عديدة.

كانت عائدة ليلًا من عملها، حين ضايقها بعض الشباب.

الشارع المظلم يؤدي إلى الطريق العام ومنه إلى منزلها، فتضطر للمرور منه، وجدتهم ثلاثة شباب يقفون خلف سيارة سوداء كبيرة، وما إن اقتربت منهم حتى بدأوا في التظارف والسير خلفها.

أسرعت داليا قليلًا، محاولةً الابتعاد دون إظهار خوفها، وإن كانت خطواتها المهرولة باعدت

المسافة بينها وبينهم، إلا أنها لم تمنع ألفاظهم النابية من اختراق سمعها.

فجأة، ظهر من العدم صوتًا قويًا، يقول في ثقة:

- لماذا لم تنتظرينني عند بداية الشارع كما اتفقنا؟

ظنت داليا أنه أحد هؤلاء الشباب، فأسرعت بخطى متوجسة، لكن الرجل تبعها، قائلًا:

- لا أصدق أنك لا تزالين غاضبة مني؟

وجدته يقترب هامسًا:

- جاريني في هذا.

ومن ثم تابع بصوت أكثر ارتفاعًا:

- عمك اللواء بدر وافق على طلبي وهو

ينتظرنا هناك.

تابع حديثه الذي لم تفهم منه داليا شيئًا، كان يتكلم ببساطة وتلقائية عن أشخاص واتفاقات، وكأنه يعرفها فعلًا.

حين وصلوا إلى بداية الشارع حيث الطريق العام وأنس السائرين هنا وهناك، توقف الرجل ليقول بأدب جم:

-أعتذر، لكنها كانت الطريقة المثلى لحمايتك.

ثم استدار مغادرًا قبل أن يترك لها الفرصة للرد، واختفى بين الزحام.

ظلت داليا متجمدة في مكانها لثوانٍ، لكنها تداركت نفسها لفورها، وسارعت بالعودة إلى المترل.

ظلت تلك الحادثة تحتل مكانًا مميزًا في عقل داليا، لم يكن الشباب الذين ضايقوها هم السبب، بل الرجل الغامض الذي ظهر فجأة، واختفى فجأة.

حاولت كثيرًا تذكر ملامحه، أو حتى صوته، إلا أنها لم تستطع، حاولت كثيرًا أن تطلق عليه اسمًا ما، لكن كل اسم كانت تقترحه كان يتناقض مع تخيلاتها عنه.

لم تحكِ تلك الحادثة لأحد، احتفظت بها لنفسها فقط، فقد كانت تعتقد -في بعض الأحيان- أن كل هذا لم يكن سوى حلمًا، فخشت من السخرية التي قد تتعرض لها.

مرت ثلاثة أيام على تلك الحادثة، حين اتصلت بها والدتها وطلبت منها الاستئذان من عملها،

والعودة فورًا إلى المترل.

عادت داليا كما طلبت منها والدتها التي استقبلتها على الباب، وقادتها إلى غرفتها، قائلةً:

- بدلي ثيابك، وتعالي لغرفة الضيوف في الحال.

ثم غادرت الغرفة دونما شرح لأي شيء، فتكفلت الأخت الصغرى ملك، بالتوضيح:

- عريس.

غضبت داليا.

كثيرًا ما أوضحت لوالدتها أنها لن تتزوج الآن، وإن فعلت لن يكون بتلك الطريقة البدائية، لولا أن ملك تابعت:

- إنه يعرفك هذه المرة.

أثارت الكلمات فضول داليا، مما دفعها إلى ارتداء ملابسها والخروج.

في غرفة الضيوف، جلست سيدتان باديتيّ الثراء، ما إن رأت الأم داليا، حتى نهضت لتقديمها:

- ها هي العروس.. ابنتي داليا.

نظرت إلى ابنتها تحثها على تحية الضيوف:

- مدام هيام، وابنتها الآنسة رهف.. وابنها الدكتور بهاء.

ما إن وقعت عينيّ داليا على الرجل، حتى هتفت قبل أن تقدر على منع نفسها:

- أنت؟!

نهض، يصافحها وهو يقول باسمًا:

- بلى.

ظلت داليا طوال صامتة الجلسة، تراقب بهاء من حين إلى آخر، غير قادرة على منع نفسها من التفكير في كيفية وصوله إليها؟ ومدى إمكانية أن يكون هذا حقيقيًا؟!

سريعًا ما تم تحديد موعد آخر لقراءة الفاتحة، دون أن تعترض داليا بحرف، تساءلت والدتها عن كيفية معرفتها المسبقة ببهاء، حكت لها الأمر باقتضاب.

لم يعترض والدها على العريس، كيف يرفض جراحًا ناجحًا ذو سمعة طيبة؟!

كما كان وسيمًا بشكل لا تقدر حتى داليا على

إنكاره، وهي التي من النادر أن تصف شخصًا بتلك الكلمة!

تم كل شيء بسرعة كبيرة، فخلال ثلاثة أسابيع فقط كانت داليا قد خطبت إلى بهاد علم الدين، وقد دفع فضول غامض داليا للاستمرار في هذه العلاقة، فقد كانت ترغب في معرفته بشكل أكبر.

****

لم تعرف داليا؛ ما الذي عليها قوله، فقد كانت تجلس لأول مرة بمفردها مع بهاء في أحد النوادي بعد خطبتهما.

من ناحيته، ظل جالسًا أمامها لبعض الوقت دون أن يتكلم، أخيرًا قال:

- لِمَ لا تتحدثين؟

- في الحقيقة لا أعرف ما الذي عليّ قوله؟ حتى أنني لا أزال غير مصدقة؛ أنني أجلس معك الآن .

ابتسم بهاء:

- أهو ندم؟

ضحكت داليا، فقد كان عدم شعورها بالندم هو أكثر ما يثير تعجبها:

- لا، ما يحيرني: كيف عرفت مكاني؟ أكنت تتبعني ؟

نظر بهاء إلى عينيها مباشرة:

- لسبب لا أستطيع تفسيره، عندما رأيتك

تلك الليلة سرت خلفك، كان خوفي عليك هو الدافع؛ خفت أن يعاود هؤلاء الشباب -أو غيرهم- مضايقتك.

ظلت داليا تتطلع إليه للحظات، ومن ثم قطع صمتها متابعًا:

- لِمَ وافقتِ على الخطبة؟

أخذت داليا نفسًا عميقًا محاولة إيجاد إجابة مناسبة لم تكن هي تعرفها، ومن ثم باحت بأقرب الأسباب منطقية:

- شعرت بالرغبة في معرفتك أكثر.

- هيا بإمكانك سؤالي عن أي شيء.

ظلا يتحدثان معًا لوقت طويل، حتى تأخر

الوقت، وعادت داليا إلى منزلها بينما تفكر:

هل اتخذت القرار الصحيح؟ هل تسرعت؟

لم تعرف إجابة أي من تلك الأسئلة!

تكررت لقاءاتهما كثيرًا، عرفت خلالها داليا العديد من الأمور عنه، فهو يعيش في مصر بمفرده، تزوجت الأم بعد وفاة والده، وتعيش في أحد الدول الأوروبية مع أخته وزوجها، أما هو فيعيش بمفرده، يعشق الدراسة، لذلك يتعلم شيئًا جديدًا كلما سنحت له الفرصة، لكن أكثر ما أحبه هو الجراحة.

كان بهاء حنونًا جدًا، كثير الاهتمام بها، فلم تزدها الأيام سوى تأكدًا أنها لم تتسرع.. وأنها اتخذت القرار الصحيح.

****

٢. ملاحظات غريبة:

مرت أشهر خطبتهما سريعًا، وقد أصبح عليها الإسراع للانتهاء من كل تجهيزات الزفاف الذي سيحين موعده بعد أيام قليلة.

يقع المنزل الذي يمتلكه بهاء يقع في حيٍّ راقٍ، منزل كبير فخم، لكنه يحتاج للعديد من الأعمال، ولانشغال بهاء الدائم، أصبحت داليا هي المسئولة عن إنهاءها.

ومن ناحيتها؛ لم تمانع، فقد كانت تشعر دائمًا أنها تبني الحياة التي طالما تمنتها.

استيقظت داليا من نومها متأخرة، وكالعادة

أمسكت هاتفها لتتصل ببهاء حتى قبل أن تقوم من فراشها، فقد اعتادت ألا تصحو إلا على صوته. وجدت هاتفه مغلقًا، فتأففت قبل أن تنهض وهي تفكر: لماذا؟

جهزت نفسها للنزول، واتصلت به، من جديد هاتفه مغلق، بدأ القلق ينتابها.

توجهت إلى عملها وهي لا تزال تحاول الوصول إليه، لكنها في كل مرة تواجه نفس النتيجة، لم تكن داليا من تلك الفتيات اللائي يقلقن بصورة سريعة، ولكنها قلقة بحق تلك المرة.

استمرت يومين على هذا الحال، قبل أن يتصل بهاء أخيرًا:

- داليا.. كيف حالك؟

امتعضت مع كل هذا الهدوء الذي شعّ من صوته، فسألت:

- أين كنت؟

تبدّل صوت بهاء إلى نبرة غضب لم تسمعها داليا من قبل:

- أين عساي سأكون؟ في عملي بالطبع.

قبل أن تجب داليا، تابع هو بذات النبرة:

- إلى اللقاء.. فأنا مشغول الآن..

قضت داليا بقية اليوم في بكاء، بينما لم يعاود بهاء الاتصال، فقط في اليوم التالي هاتفها معتذرًا، وتحجج بضغوط العمل والدراسة.

هدأت داليا وقد قررت أن في الأمرين عذرًا

إلى حد ما.

تكرر الموقف ذاته على فترات متباعدة، ففي كل مرة يغيب ليوم أو يومين، ومن ثم يعاود الظهور غاضبًا حانقًا، وفي الختام، يرتد إلى سيرته الأولى، إلى الطبيب الناجح الحنون الذي تعرفه داليا.

تسببت تلك الأمور في جعل داليا تفكر، إنها تتعجب ولا تقتنع بأن الدراسة والعمل هما السبب، لكنها سريعًا ما قررت التغاضي عن ذلك، فهي الآن تبني مستقبلها مع الرجل الذي تحبه بصدق، فلا داعي لأن تسمح لمواقف عارضة بالتنغيص عليها.

أما الأمر الثاني: فقد كان تلك الغرفة في تقع في المنتصف من منزلهما، بابها خشبي متين، ومغلق –

دائمًا- بإحكام.

طلبت داليا مرارًا من بهاء إحضار مفتاحها، لتقوم بتجهزها ضمن باقي المترل، ولكنه كان دائم الاعتذار:

-ليس معي، نسيته، يبدو أنه ضائع.

وهكذا قررت داليا -ذات يوم- أن تفتح تلك الغرفة بالقوة.

كانت مرة من تلك المرات التي يختفي فيها بهاء، فطلبت من أحد النجارين كسر باب الغرفة، ثم دخلت.

غرفة كبيرة، لعلها أكبر غرف المترل، حوائطها شديدة الاتساخ، بها العديد من الشروخ والبقع الصفراء والسوداء، وفي أقصاها تواجدت طاولة

خشبية متينة، اقتربت منها داليا وقد شعرت أنها مشدودة إليها بالتحديد.

طاولة مهملة مليئة بالتشققات والجروح التي تحدثها أدوات المطبخ، أو أدوات الجزارة لتكون أكثر دقة.

وإلى جوار الطاولة أرضًا يوجد دلو صدئ، يحوي أدوات حادة، أشبه بأدوات جزار كما خمنت بالضبط.

انتابت داليا قشعريرة باردة، وقررت المغادرة حتى أنها نست عزمها السابق على تنظيف هذا الجزء، ستسأل خطيبها عنه عندما يعاود الظهور، ما تلك الغرفة التي بثت الخوف في قلبها؟

في المساء استيقظت على اتصال بهاء، لم يكن

من المعتاد ظهوره هكذا بعد اختفائه أقل من يوم، جاءها صوته الغاضب:

- ماذا فعلتِ في الغرفة؟

في البداية لم تفهم عن أي غرفة يتحدث، ثم تداركت نفسها، وقالت بغضب مماثل:

- لا يحق لك أن تغيب فجأة، وتظهر فجأة، لتستجوبني بهذا السخط.

من جديد، أتاها صوته الناري:

- لماذا فتحتِ الغرفة؟

- لأنظفها، فلو أنك لا تزال تذكر زفافنا بعد أيام، عليّ ترتيبها والعمل على جعل كل شيء جاهزًا، ما أهميه تلك الغرفة على أيّ حال؟

لم يخف غضبه، بل تابع:

- سلام.

وأغلق الهاتف.

تعلم داليا أنه سيتصل بها في الصباح ليعتذر عما بدر منه، لكنها لم تهتم، كانت غاضبة حقًا، غاضبة كما لم تكن من قبل.

وكما توقعت اتصل بها بهاء في الصباح يعتذر عن طريقته في المساء، فكررت سؤالها السابق:

- ما أهميه تلك الغرفة يا بهاء؟

عم الصمت لدقائق، قبل أن يكمل:

- إنها لوالدي رحمه الله، كنت يعلمني فيها النحت والحفر على الخشب، لهذا هي مهمة لي.

انتاب الأسف داليا، فاعتذرت بحياء:

- أعتذر.

قال بصوته الهادئ الحنون الذي تحبه داليا:

- ما الذي ستفعلينه اليوم؟

- لا شيء، سأذهب للعمل ومن ثم أعود للمترل في المساء، لأستريح وأنزل مع أمي للذهاب حيث قياس الفستان.

- ألن تمري على المترل؟

- لا.. ليس اليوم.. إلى اللقاء.

****

اضطرت داليا أن تمر على المترل، وهي عائدة من العمل، فقد تفاجئت بأصدقائها في العمل قد

أحضروا لها مجموعة من الهدايا لمنزلها الجديد، فقررت أن تمر وتودعهم به.

فتحت باب الشقة ودخلت، وضعت الأشياء من يديها وكانت على وشك المغادرة حين سمعت صوتًا غريبًا آتيًا من الغرفة التي بالداخل، الغرفة المغلقة.

نادت:

- بهاء؟ أأنت هنا؟

لم يجبها أحد، فاقتربت من الغرفة أكثر، كان صوتًا شبيه بالأنين، وصوت بلغة أخرى غير مفهومة، فاقتربت أكثر، وهمت بفتح الباب حين وجدت أمامها بهاء بثيابه الكاملة، ومن فوقها مريولة ملطخة بالدماء.

كان مشهده مرعبًا، مخيفًا، إلا أنها حاولت تجاوز مفاجئتها، وتساءلت:

- ماذا هناك؟ ماذا بك؟

لكن بهاء لم يجيبها، فقد بدا متفاجئًا بحضورها، وظل ينظر إليها، حين تابعت:

- هل أنت مصاب؟

لم يرد أيضًا، كانت تريد الاقتراب منه وفي نفس الوقت خائفة جدًا، حتى وجدته يتحدث أخيرًا:

- لم يكن من المفترض أن تأتي إلى هنا.

تعاظم الخوف بداخل داليا حين سمعت صوتًا لم تفهمه، بينما ظهر عليه هو أنه فهمه، لأنه هز رأسه

بعنف، وقال هامسًا:

- لا تتدخل أنت.

خلع المريولة والقفازين اللذين كان يرتديهما، ثم تقدم من داليا التي لا تزال واقفة لا تفهم شيئًا:

- اهدئي، وسأشرح لك كل شيء.

وقادها إلى غرفه المعيشة.. فجلسا، ومن ثَم قال:

- لم يكن من المفترض أن تعرفي هذا، ليس الآن على الأقل.

تمتمت داليا:

- ماذا يحدث؟

ابتسم بهاء:

- قبل أن ابدأ في الشرح.. عديني ألا تتركيني، فأنا بدونك سأصبح وحشًا حقيقيًا.

لم تجبه داليا، فتابع:

- هناك العديد من الأشياء التي لا تعرفينها عني، في البداية هيام ليس أمي، ولا أعرف من هي في الحقيقة، لقد أدت لي تلك الخدمة مقابل بعض المال، عندما ولدت كنت بلا أم ولا أب، لا أعرف كيف جئت إلى هذه الدنيا، كل ما كنت أعرفه هو نبوية، من نبوية؟ امرأة عطوف رعتني وكأنني قطة سيامي من تلك القطط التي يمتلئ بها الشارع، لم يصل عطفها إلى أكثر من هذا يومًا، كانت تضع لي الطعام في طبق بمفردي لا يأكل فيه باقي أفراد عائلتها، أنام أمام الباب كحارس عقار، عشت

حياتي مشردًا لا أعرف لي أهل ولا مكان، فنبوية لم تتحملي كثيرًا وسريعًا ما ألقتني إلى الشارع، حينها تعرفت على بهاء الذي قدمني إلى عالم السحر.

خرجت كلمات بهاء بنبرة متهدجة، مثقلة بما يقوله، مما جعل داليا تشعر بالشفقة تجاهه، وتناست شعور الخوف قليلًا، بينما واصل هو:

- عندما دخلت إلى هذا العالم تغيرت حياتي، واستطعت الوصول إلى أقوي وأعظم ساحر ليساعدني، هل سمعت من قبل عن زورستر؟ زورستر ساحر، ولكنه ليس كاالآخرين الهواة، بل هو من وضع قوانين السحر، هو من علّمه للإنسانية السحر.

عندما تطرق حديثه إلى هذه النقطة، نهضت

داليا:

- أنت تمزح أو تهذي، هل تسمع ما تقوله حتى؟

أمسك بهاء بيدها، واستطرد:

- عشت -طوال حياتي- وحيدًا، لم يكن هناك من قد تعرف حقيقتي وتستمر معي، أما أنت.. أنت مختلفة، لقد أخبرني زورستر بهذا، لقد اختارك لي. الأمر ليس مخيفًا لتخافي.. الأمر أجمل وأروع مما تتخيلين.. أنا أحبك يا داليا وأعلم أنك تحبينني.. اسمعيني وتفهميني لنكون في هذا معًا، لنملك الخلود معًا.

****

٣- زورستر:

أعلم أنني كنت قادرة في تلك اللحظة على الهروب، لكني لم أفعل!

جلست أنظر إلى بهاء!

أحبه، أحبه بطريقه لا يمكن تفسيرها، أحبه حتى أنني كنت مستعدة لسماع كل تلك الخرافات التي يقولها وتصديقها، لا بد أنه رأى هذا في عينيّ، فابتسم مكملًا:

-لقد عقدت الصفقة مع زورستر، فدرست السحر، السحر الأسود كما يطلق عنه، مع العلم أنه لا يوجد سحر أبيض وآخر أسود، السحر

سحر، وطالما اخترت هذا الطريق فلا تلوم إلا نفسك، وهو ليس بالطريق السهل والجميل كما تصوره هوليود، عشقت هذا الرجل الذي وضع أساس كل شيء، عشقته حتى أخذت أبحث عن كيفيه ملاقاته، ونجحت أخيرًا، استطعت عمل تعويذة تعيد طيفه إلينا، وبما أنني؛ هالكٌ هالكٌ، فيمكنني القول بكل أريحية: هذا الرجل مقيت وليس ساحر، في البداية انبهرت بما يحدث ومن ثم انتهى كل ذلك، وبدأ العمل الجدي، رغب زورستر في البقاء على الأرض ولو في صورة طيف، ورغبت أنا في أن أملك مفاتيح السحر في الأرض، وأجعل عمري يمتد لسنوات طوال لا تُحصى، وهكذا استطعنا أنا وزورستر تكوين فريق يساعد كلا منا

الآخر، تتسائلين عن بهاء الآخر؟

لقد أخذت مكانه، هذا كل ما يمكنني قوله، كان دوري يكمن في أن أساعده في البقاء كطيف، ودوره أن يعلمني من قوته، حتى تطور الوضع وأصبح يطلب مني ما لا أستطيعه، في البداية أعطاني تعويذة ليست بالبسيطة، تتطلب العديد من الأغراض، أخطرها دماء سبعة أشخاص: (رجلان في عنفوان الشباب - فتاتان - طفل - امرأة عجوز - ساحر).

في البداية رفضت بالطبع، كيف أوافق على قتل سبعة أشخاص، بينهم أطفال ونساء.

تركني زورستر بضعه أيام، ومن ثم أتى من جديد وهو يلوح لي بأكثر ما تمنيت، بالشباب

الدائم، كل عشرة أعوام ستمر على جسدي، وكأنها عامًا واحدًا.

فكرت كثيرًا، واحترت أكثر، أخيرًا اتخذت قراري، سأفعلها، لا ترمقينني هكذا! ما الضير من قتل رجلين من المتسولين أو المجرمين - فتاتان من بنات الليل التي امتلأت بهم مدينتي في هذا الوقت - امرأة عجوز شمطاء كنبوية التي عاملتني كحيوان منذ صغري – وساحر.. وما أدراك ما أفعال السحرة تلك الأيام - وطفل رضيع أريحه من الأم الدنيا التي سيبتلى بها، بدا لي الأمر معقولًا بتلك الصيغة.

بعد تجمعي لدماء السبعة طلب مني زورستر أن استحم بها أولًا، وحينها لا أعرف ما حدث لي

تحديدًا؟!

فقدت الوعي، وعندما أفقت كنت قد اختلفت تمامًا ولم أعد بهاء علم الدين الذي كنته من قبل.

نظر إلىّ متوقعًا أن أهرب، أو أصرخ، لكنني لم أفعل، كنت أنظر إليه، فأمسك بيدي بقوة، وقال:

- تكلمي يا داليا أرجوكِ، قولي لي أنك لن تتركيني، أنك تحبينني... داليا لن أكون بخير إن تركتيني.

بدأت الدموع تتجمع في عينيه، ورأيته كطفل صغير يخطأ، ويطلب من والدته الصفح، لم أتمالك نفسي وضممته إلى صدري، وأخذت أربت على رأسه، وأقول:

- لا تقلق لن أتركك.. لن أفعل.

كنت أعرف حينها أنني مخطأة، لكني لم أكن مستعدة للتضحية بكل ما حلمت به، كما أنه أعطاني أبوابًا لا حدود لها لأحلم بكل ما أريد. عرفت فيما بعد أن تلك الصفقة تعني أنه مجبر على قتل هؤلاء الأشخاص ليبقي هو حيًا، عمره -بحساباتنا الأرضية- ٣٣٠ عامًا، أما بحسابات زورستر ٣٣ سنة.

تزوجته بالرغم من كل هذا، تزوجته وأنا أعرف ما سأفعله تحديدًا، عرفت كل القوة والمهارات التي يمتلكها زوجي، ولكنني كنت أتناساها دائمًا أمام حبه وطيبته.

رأيت فيه شيئًا آخر، شيئًا بعيدًا عن هذا السر المظلم الذي يحمله بهاء داخله، لكني كثيرًا ما

فكرت في حقيقة ما أشعره نحوه؛ هو ساحر، ساحر قوي، هل عليّ أن أتخلص منه؟ هل وجودي معه حقيقي؟ إنه قاتل.. بينما أتناسى ذلك!

قررت أن أبحث في كل مكان عن أي معلومات عن زورستر هذا، فلم يختلف ما وجدته عما أخبرني به بهاء.

"زورستر" كما تقول الكتب هو أول من وضع قواعد السحر في العالم، وكل السحرة في العالم يدينون له بالولاء.

لم يكن بهاء قد عاد بعد، ظللت جالسة أمام الغرفة كالمنومة مغناطيسيًا، لم أعلم كم من الوقت مر، حين وصل بهاء لم أشعر بقدومه حتى اقترب مني، وقبّل رأسي، وهو يقول بحنان:

- ماذا بك يا عزيزتي؟

نظرت له، كيف يتكلم بهذا الحنان، كيف أصدق منه هذا النقاء والطهر، في حين أنني أعرف حقيقته!

لاحظ شرودي، فأضاف:

- هل هناك شيء ما؟

ابتسمت متمالكةً نفسي، وقمت من مكاني كي لا يرتاب.

مر اليوم كأي يومٍ أخر، وعاد روتين حياتي إلى وتيرته العادية، إن أمكنني أن أسمي الأعمال المترلية في النهار، والقتل في آخر الليل.. روتينًا.

ذات ليلة، وصل بهاء ومعه رجل مخدر في

ريعان شبابه، تلك المرة تعمدت أن أراقب بهاء جيدًا، أن أعرف كل خطوة يقوم بها.

وجدته يُدخله إلى الغرفة، ثم يضعه فوق الطاولة الخشبية المتآكلة، قيد أطرافه جيدًا، وبدأ يتكلم لغة لم أفهمها، ولكني بسهولة استطعت تمييز أن ما يقوله هو تعويذه ما.

نحر عنق الرجل ببطء، فبدأت الدماء تتناثر، وتصيب وجهه بهاء وتلوث ثيابه.

سمعت همهمات قوية، عرفت أن هذا هو زورستر.

كان من المفترض أن تنتهي تلك الطقوس عند هذا الحد، بعد أن أصبح الرجل – الجثة إن صح التعبير- خالية من الدماء، ولكن بهاء لم يتوقف.

وضع دلوًا معدنيًا مليئًا بالأدوات الحادة على طاولة صغيرة إلى جواره، وبدأ في تشريح جثة الرجل.

لم أتحمل المشهد، كدت أصرخ؛ إنه مجنون وقاتل ووحش!

خرجت، وأنا أقسم أن هذا الكائن في الداخل ليس بهاء، من المستحيل أن يكون هذان الشخصان واحدًا.

حاولت ألا أبدي تقززي وخوفي، حتى حل الليل، ونام زوجي بهدوء واسترخاء كأنما لم يقم بتلك الأفعال البشعة منذ سويعات.

هل يمكنك أن تكره أحدًا بشدة وفي ذات الوقت لا تقدر على الحياة دونه؟!

هل من الممكن أن تخاف شخصًا ما، ولا تشعر

بالأمان إلا معه؟!

كنت أعرف أنني بدأت أجن، لا يمكنني الابتعاد عنه، ولا تخيل حياتي بدونه.

أمعنت النظر إليه، كان كالملاك النائم – ضحكت في سخرية لذلك التشبيه – فأنا أكثر الناس دراية بالحقيقة.

يجب أن أقتله، هذا هو الحل الوحيد.

سأقتله ومن ثم أقتل نفسي، سأقتله لأحميه وأحمي الجميع منه، ثم ألحق به، فلا معني لحياتي بدونه.

****

ابتلعت داليا ريقها وذكرياتها، لتستقبل التعليقات التي توالت على القصة:

"فخورة بك يا داليا، لقد أثبتِ أن قلم الأنثى قادر أن يخيف أيضًا إذا أراد".

"قرأت القصة مسبقًا يا داليا، وعندما سمعتها منك الآن أحسست كأنني أسمعها لأول مرة".

"متابعة للسلسلة الأدبية التي تكتبينها أنتِ ومصطفى، سامحكما الله فعلًا، كان الأليق أن تجريا توقيعكما في السلخانة."

"أتفق مع الرأي السابق، لقد قرأت جميع إصداراتكما فعلًا، الجميل أن كل منكما يستخدم اسمه وشخصيته الحقيقية في كتاباته، كم كان ذلك موفقًا، أجمل منا فيه، احتجازكم القارئ في عجز

مستمر عن التفرقة بين الواقع والخيال!"

ضمت داليا كفيها المتشابكين إلى صدرها، وكأنما تحتضن سرورها وخجلها أمام هذه الانطباعات المبهجة:

- أشكركم جميعًا، آرائكم أطربت قلبي. بالفعل، أنا ومصطفى نكتب في دار نشر واحدة، وسلسلة أدبية واحدة أيضًا، وأعترف أن مصطفى فاجأني باقتراحه حول دمج الحقيقة بالخيال، فأدخل شخصيتي الحقيقية داخل روايته الأخيرة، -بضيق- وفاجأني أكثر بالطريقة التي أظهرني بها.. أوه، لا أريد التطرق هذا الموضوع، حسنًا يا مصطفى، بغض النظر عن ضغائني الشخصية، أعتقد أن دورك حان في الحديث.

تراجع مصطفى فى المقعد، بحركة تمثيلية:

- و لِم الضغائن يا صديقتي؟ أخمن أيضًا أن شخصيتي متواجدة –كذلك- بشكل خفي داخل روايتك، كل ما هنالك أنك تتناسين ذلك، وتذكرين –فقط- نصف الحقيقة.

عمومًا، واثق أنك ستسامحينني يومًا.

على الأقل بحكم زمالتنا في أشياء كثيرة – واتسعت ابتسامته- في عقد كثيرة وقعناها معًا، عقدنا مع دار النشر، والآخر الذي كان مع...

الشيطان

وأنا

مصطفى جميل

- الاسم: مصطفى محمود جميل.

- السن: ٣٠ سنة.

- الحالة الاجتماعية: أرمل.

- المهنة: معيد بكلية الآداب- قسم اجتماع.

-التخصص: دكتوراة في تطور السحر والتفكير الخرافي.

- الهوايات: القراءة، الموسيقى، الكتابة.

- صدرت أولى أعمالي الروائية بعنوان (أنا والشيطان)، (رواية عن أحداث حقيقة ومرجعية بحثية).

شعور بالزهو يتملكك حينما يصبح عملك الأول محور حديث المجتمع حتى قبل أن يصدر!

يبدو أنه دوري الآن ولكن هل لنا بمشروب ساخن أولًا، ها هي ذي القهوة جاءت، شكرًا يا عم سيد!

أقترح طريقة أفضل لسرد حكايتي، سأجعل بطلها هو من يحدثنا، لذا سأتقمص دوره:

ضيوفي الأعزاء.

ما سأقوله قد يبدو للبعض نوعًا من الغرور، أما بالنسبة لي، فهو ثقة بالنفس لا أكثر، جميعكم تعلمون أن الروايات الواقعية غالبًا ما تكون رومانسية أو اجتماعية أو في الأغلب تاريخية، ولكن هل سمعت من قبل عن الرعب الواقعي؟

إنه عالم متداخل نرفضه بالرغم من أنه حولنا وكثيرًا ما نلمس آثاره!

روايتنا اليوم تمت بصلة الواقع، أبطالها أحياء، أو للدقة نستطيع القول: أنهم أحياء وموتى في الوقت ذاته.

****

المكان: جامعة المستقبل، كلية الآداب، قاعة الاحتفالات.

مناقشة رسالة الماجستير المقدمة من الطالب: مصطفى محمود.

الموضوع: السحر والتفكير الخرافي (دراسة ميدانية على قرية القرانطة بأسيوط).

أقف الآن على المنصة، أنتشي بنظرات الفرحة التي غطت وجوه الجميع، عدا واحد، زوجتي.

ضايقتني نظرات العتاب في عينيها، والتي تصوبها نحوي باستمرار، فبذلت مجهودًا جمًا كي أتجاهلها، وأبدأ بالحديث قائلًا:

- بينما أضع اللمسات الأخيرة على صفحات هذا البحث، يتبادر إلى ذهني جميع من ساعدوني في

إنجازه منذ أن كان فكرة، إلى أن أصبح بالشكل الذي هو عليه الآن.

وأخص بالذكر زوجتي لما قدمته لي من تضحيات، بالإضافة لطرف آخر لطالما ساعدني وأمدني بما احتاجه من معلومات وتجارب ميدانية.

وهو ما سأبدأ بالحديث عنه الآن.

اعتمدت في إعداد البحث على أداة الملاحظة بالمشاركة، وقد اخترت إحدى قرى محافظة أسيوط (قرية القرانطة) لجعلها ميدان للدراسة، حيث تمتاز بشهرة واسعة في مجال الدجل والشعوذة، علاوة على أنها بلدتي التي أعرف أدق تفاصيلها.

تقوم دراستي على معايشه الواقع هناك، وقد اخترت إحدى الحالات لتكون منبع الدراسة، وهو

الشيخ حماد، أو كما يلقبونه في القرية بـــ.. (أبي مُرَّة).

لما كانت عائلتي تتمتع بسمعة طيبة في البلدة، سهّل لي أحد الوسطاء موعد مع الشيخ حماد.

خمنت أنني لن ألتقِ رجلًا سهلًا، إذ من منطلق دراستي، أعرف ماذا تعني كلمة (أبي مرة)؟

وكيف أنها إحدى كنيات.. الشيطان!

****

- شيخ حماد، طبعًا أنت تعلم لماذا أنا هنا؟

- دكتور مصطفى أو مصطفى فقط بدون ألقاب، أعلم أنك تسعى ببحثك هذا لهدم نظرية السحر والأعمال، لكن عندي اقتراح، إذا وافقت

عليه ستغير وجهة نظرك تمامًا، وقد يتغير مستقبلك أيضًا.

نظرت إليه مبتسمًا، وقلت في نفسي: هل يعتقد أنني أحد مريديه حتى يخدعني بهذا الكلام، هيهات، هو لا يعلم من أنا!

-"إذن ما اقتراحك؟"

- يبدو أننا اتفقنا على أن تصغي لي، لكن لا يمكننا الحديث هنا، ليكن غدًا في الثانية عشرة، منتصف الليل.

ذهبت إلى منزل العائلة وكلي شوق لمعرفة ما سيحدث غدًا.

أحتاج إلى راحة في الوقت الحالي، سأخلد إلى النوم الآن، فاليوم القادم سيكون طويلًا.

****

طال الليل بي بصحبة كوابيس مزعجة، ما بين حبل يلف حول رقبتي، وأطياف غريبة تحوم حول سريري، كل ذلك جعلني أتمنى ظهور النهار سريعًا.

عبقري حقًا، من قال:

- ساعات الانتظار لا تمر.

تحاملت على نفسي، حتى حانت اللحظة التي أترقبها، أعددت مجموعة من الأوراق، ومسجل للصوت.

هممت بالذهاب إلى منزل الشيخ حماد، من هذا المنزل بدأت الأحداث، ولا أعلم –حتى الآن- متى ستنتهي.

طرقت الباب، صوت ضربات قلبي يكاد يدوي بأعلى من طرقات يدي.

ليس بسبب الخوف، وإنما –فقط- توتر الإقدام على مغامرة جديدة.

فوجئت بالشيخ حمّاد بنفسه يفتح الباب، ويستقبلني بابتسامة أقل ما توصف به؛ أنها مُقبضة.

داخل منزل الشيخ حماد كل شيء يبدو غريبًا، المكان أشبه بمغارة منحوتة داخل الجبل، تنتشر على جدرانها شموع سوداء مشتعلة، وفي مكان عالٍ بأحد الأركان، يقف تمثال مجنح كبير منحوت من صخر أحمر ناري، ووجهه بارز التقاطيع بعيون حمراء واسعة، فمه مفتوحٌ بابتسامة تحمل آلاف المعاني، بينما أعلى رأسه قرنان أسودان مدببان،

وأمام التماثيل بركة دائرية مليئة بسائل يشبه الدم.

في الخلف.. نحت على الجدار نجمة تتوسطها رأس كبش، أما في وسط المكان فهناك منضدة كبيرة دائرية منحوتة من صخر أسود ومرسوم فوقها صليب مقلوب.

أفقت من شرودي على صوته، قائلًا:

- هل أعجبك المترل؟

- نعم، طرازه غريب.

- سيكون لك مثله وأكثر إذا اتفقنا.

- اتفقنا على ماذا؟

- دكتور مصطفى، اصغ إليّ، ثم سَل بعدها ما شئت.

أعلم عنك كل شيء منذ مولدك حتى هذه اللحظة، أعلم ولعك بكل ما هو غريب وغامض، أعلم سر تمسكك بدراسة السحر بالرغم من تحذير زوجتك باستمرار.

زوجتك التي اقترنت بها فقط لإرضاء والديك، أعلم أنك كنت تتمنى امرأة تشاركك أفكارك ومغامرتك، لا واحدة أقصى طموحها أن تعرف محتوى الحلقة القادمة من المسلسل.

أعلم أيضا أنك تحب الكتابة جدًا، وتنتظر الانتهاء من رسالتك لتبدأ في عملك الروائي الأول.

أصغيت لكل هذا، وأنا أنظر إليه كأنني مسلوب الإرادة، تصبب العرق مني بغزارة.. أكاد أجزم أنه يسمع دقات قلبي، يبدو أن المغامرة مختلفة

هذه المرة؟!

أولًا: دعني أخبرك أنك الشاهد المنتقي لهذه المهمة، من بين ملايين، لكن ليس معنى ذلك أن ستقوم بها بدون مقابل، لنقل أنه تبادل منفعة بيني وبينك.

حين نطق آخر كلمة، عقبت مندفعًا:

- ماذا تقصد بأنني "الشاهد" المنتقى؟ وما الذي سأقدمه لك؟ ما هي المنفعة التي تكون بين دجال ورجل علم؟

حينها سمعت ضحكة أقل ما يقال عنها أنها ضحكة الشيطان ذاته.

شعرت ببرودة شديدة في الجو، قبل أن أسمعه يتحدث قائلًا:

أولًا: لست بدجال، بل أنا من سيغير حياتك.

ثانيا: أنت لست بـــ (رجل علم)، ما زلت معيدًا، أي أنك –حتى الآن- تسمي طالب علم، أما إذا اتفقنا ستصبح رجل علم ومال ونفوذ وشهرة.

علينا التعاون سويًا، وسوف أبدأ أنا من طرفي بمنحك معلومات مهمة، تفيد بحثك.

معلومات لم يصل إليها أحد من قبل، لكنك لن تأخذ شيئًا بعدها إلا بمقابل.

في هذه اللحظة ازداد غروري، إذن كان هو ساحر بحق، ويريد مساعدتي!

يبدو الموضوع أكثر متعة الآن.

- موافق.

- إذن اغلق عينيك واستمع لي جيدًا.

سأكذب لو لم أقل أن الرعب دب في قلبي حينها: لكنني نفذت كل ما يقول وأغمضت عينيّ، واستمعت لاستطرادته:

- جيد.. دكتور مصطفى، أولًا أنا لست بإنسان كامل، أنا جسد بشري فقط.

دوري ينتهي تمامًا ببدء الاتفاق معك، وسوف يقوم سيدي الأعظم باستكماله، سيحضر حالًا، هيئ نفسك جيدًا، ولا تتفوه بأي كلمة.

انتابني خوف مبهم فور انقطاع حبل كلماته، أكاد أجزم أن هناك بلل بين فخدي.

الجو شديد البرودة، أشعر بالأدخنة الشديدة من حولي، حاولت فتح عيني لكن هناك من أغلقهما رغمًا عني ليمنعني من الرؤية، وألجم لساني بقسوة ليكبحني –كذلك- عن الحديث.

ساد صمت رهيب، تخلله كلمات الشيخ حماد:

(بحق الأسماء النورانية، والأنوار المضيئة، والإيماءات والصفات البهية، والساعات الشمسية والقمرية، بحق كل مارد وجن وقرين، بحق كل خادم ومطيع وأمين.

بحقك سيدي أينما كنت، وأينما ذهبت.

بحقك يا أبا مُرَّة، نفذت مطلبك وكنت خادمك وأحضرت مرادك أحضر سيدي، فالكل في انتظارك).

****

ما أن انتهى الشيخ حماد من كلامه شعرت باختناق شديد، أعقبه صوت ضحكات عالية، ثم سكون تام.

حينها حاولت فتح عينيّ، فاستجابت أخيرًا.

قمت من مكاني مفزوعًا لا أرى شيئًا من الظلام الدامس، وظللت أصيح:

- ماذا يحدث ؟ أين أنت يا شيخ حماد؟

استغرق الأمر أقل من دقيقة، حتى سمعت صوتًا لا يشبه صوت الشيخ حماد، ينبعث من جميع الأركان حولي.

- اهدأ قليلًا يا مصطفى.

- من أنت؟ أين الشيخ حماد؟ هل تفعل كل ذلك لتقنعني بأنك ساحر؟ سيظل العلم يواجه خرافاتكم للأبد.

ساد الصمت مجددًا، حتى سمعت الصوت يتحدث مرة أخرى:

- هل انتهيت الآن؟ يبدو لي أنك انتهيت، إذن لنتكلم.

أولًا: الشيخ حماد انتهت مهمته بإحضارك إلى هنا، أما أنا فأُدعى (أبو مُرَّة)، أخالك كوَّنت فكرة عمن أكون، من معني الكنية.

ثانيًا: أعلم أن كل ما تقوله الآن هو هراء، لأن معنى حضوري هنا هو اقتناعك بي بنسبه مائة في المائة.

ثالثًا: ليس لدينا وقت، فدعني أذكرك بالمهم: أنت هنا منذ سنة تقريبًا، وهذا يعود لاتفاقنا الأول، والذي بموجبه أمددتك بالمعلومات، حتى حصلت على الماجستير الخاص بك.

سقطت على المقعد مذهولًا مما أسمع.

صحت:

- ما هذا الهراء الذي تقوله، لم يمضِ على وجودي في الغرفة أكثر من ساعة؟

حينها سمعت صوت الضحكات مرة أخرى، ثم أتبعها بالحديث، قائلًا:

- لقد كنت تحت سيطرتي التامة، فخرجت من هنا بعد لقائك بالشيخ حماد، وساعدك بالمعلومات اللازمة لبحثك حتى انتهيت منه حسبما اتفقنا، ثم

رجعت إلى مرة أخرى لنبدأ الاتفاق الأكبر، لن تتذكر أي شيء لأنك كنت مسلوب الإرادة تمامًا، يمكنك أن تغمض عينيك وسأجعلك ترى ما حدث.

لا أعلم حقًا لماذا أطعته.

أغلقت عينيّ.

وكأنني أمام شاشة عرض لحياتي، رأيتني وأنا أسافر لأسيوط، رأيت لقاءاتي مع الشيخ حماد، مشاجراتي مع زوجتي، وأخيرًا شاهدت نفسي بينما أناقش رسالة الماجستير.

حينها حاولت فتح عيناي ثانية، ولكنهما أبتا هذه المرة.

ثم سمعت الصوت من حولي، يُكمل:

- يبدو لك الأمر الآن شبه منطقي، غدًا ستعود إلى كليتك، وتمارس عملك دون أن تتذكر حديثنا، وحين يجيئ موعد المرحلة التالية، ستعود.

أما هذه اللحظة، سأجيبك على ما يدور بخاطرك.

مبدئيًا: لست في احتياج لمساعدتك كما ترى، وإنما اصطفيتك لترتقي سلم المجد، وتكون "الشاهد"، الطريق إلى هذه المكانة عسير وطويل، ومفترش بالتضحيات.

بدأ يقيني يتعاظم بقدرات الماثل أمامي، لم أعرف من أين جئت بهذا الاندفاع الجارف، الذي هتفت به:

- وأنا مستعد لها أيًا كانت.

- اخترتك من بين الملايين خصيصًا بسبب هذه الروح المخلصة.. يتبقّى أن تعلم القواعد، في عالم الظلام، والتي تنص أنه:

- لا ينال بشري القوة، إلا عن طريق انتزاعها من آخر، من أحد أقطاب السحر الذين يحتكرونه، وللمصادفة أحدهم تمرد، فاستحق السحق، لتنل أنت مكانه ومكانته.

ومضت عيناي:

- وأنا جاهز.

- تقول في عقلك "ما هذه السهولة!"، في الواقع أنت مخطأ، إنها رحلة طويلة، مجرد وصولك إلى الساحر سيحتاج إلى تضحية عظمى؛ "زيت من دهن بشري".

- مـــ..ماذا تعني بزيت بشري؟ وما علاقته بالـــ..؟ أعني كيف أستعمله للوصول إلى ساحر؟!

- مجرد أن تقوم بالتضحية، ستظفر بالدفعة الأولى من المجد، (الدكتوراة، ورواية ذات شهرة واسعة).

بعدها تحتفظ بالزيت ليرافقك أينما ذهبت، حتى تبرز آثار خطى الساحر أمامك من تلقاء نفسها، فلا يتبقى أمامك سوى درجة أخرى؛ التوقيع بجوار اسمي الأعظم في عقد واحد.

اقشعر مصطفى، بينما ينتقل إلى السؤال الأصعب:

- وكيف أجلب الزيت البشري ذاك؟

-كي يفلح الزيت في أن تقهر به قوة الساحر،

يجب استخلاصه من شخص بالغ القرب منك، ولا يوجد بهذه الصفات أفضل من.. زوجتك .

****

الساعة ٧ صباحًا.

يا له من كابوس مزعج، يبدو أن دراستي ستصيبني بالجنون قريبًا.

أنظر بجواري، فأراها تغط في نوم عميق.

حقا لا أعلم سببًا مقنعًا لموافقتي على الزواج منها، هي لا تصلح لأي شيء إلا الأكل والنوم فقط، أحيانًا يهيأ لي وكأن وجودها سببًا من أسباب أزمة البشرية.

ذهبت إلى الكلية في موعدي المعتاد، ودخلت

إلى المكتبة فورًا، وكأنما يوجد شيء أبحث عنه هناك، لا أتذكر ما هو.

جلست على الحاسب الآلي، وطالعت بريدي الإلكتروني، وكانت المفاجأة:

الميل الأول.

المرسل: لا يوجد.

العنوان: لا يوجد؟

الموضوع: فقط ١٠ مليمتر من الزيت.. لا تنسى.

أغلقت الرسالة محاولًا تذكر أين سمعت هذه الجملة من قبل!

في نفس الوقت فوجئت برسالة جديدة.

المرسل: لا يوجد.

العنوان: لا يوجد.

الموضوع: شاهد رابط فيديو.

تركت الفيديو يكمل تحميله، وشرعت في قراءة الموضوع.

"سوف تري في الفيديو الطريقة السليمة لعمل الزيت، لا تقلق، مادمت آمنت واقتنعت، ستجد طريقة التخلص من الجثة أسهل ما يكون.

الخطوة الأولى: قطع رقبتها.

الثانية: سلخها من الجلد تمامًا.

الثالثة: إغراقها في المغطس المليء بحمض الكبريتيك والصودا الكاوية".

****

ساد الوجوم على وجوه حاضريّ الحفل، وخصوصًا السيدات.

"عفوًا يا سادة، واضح عليكم الامتعاض، صدقًا، أعتذر لكم عن هذه الوصفة المقززة، لكنني - بطبيعتي– باحث أكاديمي، أعتدت أن أقدم التفاصيل والوقائع بدقة وأمانة، لابد أن أواجه بها نفسي قبل أن إياكم، مهما كانت بشاعتها.

كان الملف المرفق قد أنهى تحميله، سأصف لكم ما به باختصار، ولكن اعذروني فلست خبيرًا في القتل حتى اختار كلمات أسهل في وصفه.

عرض الفيديو منظر ضحية يتم التعامل معها بنفس الخطوات السابق ذكرها، لو كنتم مكاني

لأفرغتم ما في بطونكم جراء المشاهد.

في البداية بعد ذبح الضحية، تُفصل الرأس عن الجسد، ثم بعد ذلك نأتي للخطوة الأهم وهي سلخ الجلد.. لماذا ظهر الرعب على وجوهكم هكذا نحن لم نبدأ بعد؟

عليك بعد سلخ الجلد برقة من الجسد، أن تكشط طبقة الدهون الرقيقة الملاصقة له ثم قم بتجميعها داخل مرجل، وضعه على النيران حتى تذوب تمامًا.

سهل كقطعة كعك؟

والآن احضر قطعة رقيقة من النايلون وقم بتصفية الزيت، ثم اغلِ الزيت المفلتر مرة أخرى مع قليل من الملح، لتحصل في النهاية على زجاجة من

الزيت المطلوب.

هذا كل شيء، يبدو الوضع مقززًا للبعض، ويبدو ممتعًا للبعض الأخر من الساديين، ولكن بالنسبة لي مثّل مفتاحًا للخلاص.

خرجت من المكتبة إلى منزلي مباشرة، أشعر وكأنني شخصًا آخر، لا أرى أمامي أي شيء سوى قتلها.

كم هذا مقزز!

لا أعرف حقًا كيف تحملت ذلك، وإن كان التخلص من الجثة أسهل مما تخيلت.

ولما لا؟! لقد نفذت ما شاهدته في الفيديو تمامًا بدون أي أخطاء، وكيف أخطئ وأنا من كنت أنفذ هذه العملية أيضًا في الفيديو!

أشعر بنشوة وراحة نفسية عارمة، الآن فقط تخلصت منها ولكن لماذا فعلت كل ذلك بجسدها؟ ولماذا زجاجة الزيت هذه؟

تذكرت.. إنها الدرجة الأولى من السلم، والتي سأنال بموجبها، الدكتوراة، والرواية الأشهر.

ثم يُفترض أن يعقبها ما هو أكثر.

لا أعلم كم من الوقت مرّ على، وأنا نائم على مقعدي؟

أفقت من نومي أشعر وكأن آلاف السكاكين التي تنهش جسدي.

قاومت حتى قمت من مكاني، وتوجهت للحمام لأرى ماذا حدث للجثة، وأقوم بتنظيف البقايا.

ولكن ما أثار حيرتي، أنني رأيت الحمام نظيفًا تمامًا.

لا يوجد أي أثر لدماء أو للجثة، في حين كُتب على جدران الحمام: "حان الوقت للتبليغ عن اختفاء زوجتك".

ثم بدأ الكلام في الاختفاء تدريجيًا!

كل ذلك يحدث كيف؟ وبهذه الدقة؟

لا أعلم!

المهم توجهت إلى قسم الشرطة الخاص بمنطقتي، لأبلغ عن اختفاءها، وكعادة الشرطة يجب أن يمر ٢٤ ساعة، حتى يبدأوا البحث.

نمت واستيقظت، أشعر وكأن العمر عاد بي

عشر سنوات إلى الوراء.

وصلت مكتبي بالجامعة، وأمسكت بالورقة والقلم وبدأت في الكتابة.

كتبت حتى نفذ مني الحبر، وحتى قاطعني صوت طرقات على الباب.

الرابط

ياسين أحمد سعيد

أجبت بروتينية:

- ادخل.

امرأة جميلة في منتصف العشرينيات، تشع حولها هالة من الفتنة.

-"رحمها الله".

لسبب ما تذكرت زوجتي الراحلة، رغم الفرق الشاسع بينها وبين من أمامي الآن!

سألت الزائرة الجميلة بملامح يداخلها الارتباك:

- حضرتك دكتور مصطفى؟

اعتدلت في جلستي:

-نعم، يا أفندم، تحت أمرك.

زادها التوتر جاذبية، بينما تضيف:

- في الواقع، لدي أسئلة في مجال تخصص حضرتك، فأخبرني بعضهم أنك أكثر من يمكنه إفادتي.

أشرت لها بالجلوس، فاتخذت مكانها على المقعد المقابل للمكتب، وبدأت تعريف نفسها:

- داليا.

****

توقف مصطفى عن السرد، كمن يضع نقطة، ثم من أول السطر، ليمهد بتحوله إلى زميلته على المنصة:

- داليا.. لقد أهديت قصتك إلى بهاء يا صديقتي، فاسمحي لي أن أتبع نفس التقليد، وأهدي هذا الجزء من روايتي.. إليكِ.

استعمر الضيق وجه زميلته على عكس المتوقع، فتحاشى -باسمًا- النظر إليها، وعاد ببصره إلى الجمهور:

- النصف الثاني من قصتي، يجيب عن كل الأسئلة، فيوضح وجهة نظر أخرى عني وعن داليا.

وجهة نظر تضع افتراضات من نوعية:

ماذا لو أن روايتينا ربما هما - في الأصل- رواية واحدة؟

ماذا سيحدث لو التقى أبطالهما، لتشتبك مصائرهم؟

أسمح لنفسي بأن أشطح وأستمر في سلسلة الـــ (ماذا)، لأطرح علامات استفهام أكثر جموحًا من نوعية:

- ماذا لو أن داليا تخلصت من زوجها لأسباب أخرى، بعيدة عن مسألة؛ تخليص العالم من شروره، إلى آخر تلك المثالية؟!

ما سأحكيه أزعم أنه سيفسر حتى: لماذا نحن الأربعة هنا، نجري حفل توقيع معًا، في هذا اليوم تحديدًا؟

أخيرًا، ملحوظة هامة قبل أن أبدأ:

- إذا خشيتم الخلط بين وجهتي نظرنا أنا وداليا، بوسعكم الاكتفاء بما ذكرته زميلتي، وعدم الالتفات إلى ما سأقوله تاليًا، فتجنبون العبد لله الاتهامات بالتكرار، أو التسبب في إملالكم.

كتبت هذا التنويه نصًا في مقدمة جزئي الثاني، وأعيده –الآن- زيادةً في التوكيد.

****

حكت الضيفة:

- المشكلة تكمن في زوجي، لا يمكنني ذكر اسمه حتى –تلفتت حولها بتوتر- فمجرد النطق به قد يجعله يسمعنا.

تعرفت عليه منذ عامين، رجل ظهر في حياتي فجأة تصحبه هالة خاصة من الجاذبية، قويّ الشخصية، حنون، و.. ساحر.

تزوجنا بعد خطبة قصيرة، ثم بدأت أتعثر في ملاحظات غريبة تحوم حوله، أغربها؛ أنه "متجدد الوسامة"!

الكلمة قد تسر أي أنثى للوهلة الأولى، في حين يختلف الأمر تمامًا عندما تختبره مباشرة.

"متجدد الوسامة" بمعني أن ملامحه تتغير بمرور

الوقت، إحدى عينيه تصير زرقاء، بينما تتمسك الأخرى بسوادها الأصلي.

ظهرت له حسنة تزين جبينه، ثم زالت فجأة بعد أسبوع.

تشككت في سلامة بصري حينئذٍ، لدرجة أنني فكرت في الكشف عند طبيب عيون، قبل أن تأخذ الأمور منحنى آخر، وسمعت كلمات بلغة غريبة تفلت من لسانه، في لحظات شروده.

ثم جاء وقت إعداد البيت للزفاف، يملك زوجي طابقين في عمارة كبيرة بأحد أحياء القاهرة الفاخرة، أحدهما في الدور الأرضي، والآخر عبارة عن بدروم!

استغربت من اهتمامه بالثاني أكثر، فيودعه

مكتبته، وغرفة عمله، وحتى مكان مبيته.

شرح لي أنه مصاب بحساسية من نوع نادر، تمنعه من المبيت في مكان فوق مستوى سطح الأرض.

تنحنحت–وقتها- بحرج؛ معنى كلامه أن غرفة نومهما ستكون بالأسفل أيضًا.

يا له من فأل غير مريح! وإن كان حبي له أكبر من التوقف عند نقطة كتلك.

قبيل الزفاف مباشرة، جاء موعد الحقيقة التي اكتشفتها بالصدفة البحتة،مما اضطره لمصارحتي؛ أنه ليس بشري تمامًا، إنه متمرد منشق عن العالم السفلى، يعيش على تمزيق الأجساد، بما يساعده على إطالة شبابه، عمره الآن يبلغ حسب كلامه

٣٣٠ عامًا!

أقسم الساحر أنه يعشقها، ولا يستطيع الحياة بدونها.. تساءلت في سرها: كيف عاش إذن الـ ٣٣٠ عامًا التي يتحدث عنها!

ترقرقت الدموع في عينيه، وهو يطلب منها ألا ترحل من دنياه، وعدها بأن يمنحها السعادة، و... القوة، و.. والشباب الدائم.

- سأبقى

لا تعرف داليا كيف نطقها لسانها وقتها؟!

-"وافقت، وربما يعتبرني البعض آثمة بقبولي، هذا محتمل، ربما كنت واقعة تحت سحره، أو لعله إغراء فكرة الشباب الدائم، ثمة احتمال ثالث أن رجلي مريض نفسيًا، أي يتوهم ما قاله لا أكثر".

المهم، أن ما حدث قد حدث، هزمها بضعفه، تعجز عن الشرح حقًا كيف تغلل في كيانها حتى صارت تري العالم بعينيه، تسمع بأذنيه!

استسلمت حصون وعيها أمام جاذبيته الكاسحة، فصارت زوجة لمن يسمي نفسه بـــ "ممزق الأجساد".

مع الوقت، تأكدت أنه صادق تمامًا، كيف تنكر ذلك، وهي تراه يحضر ضحايا إلى المترل، مزاولًا طقوسه!

-"أدركني بما تعرفه يا دكتور مصطفى، قيل لي أنك الوحيد الذي يستطيع تفسير ما يحدث."

****

وضعت داليا كوب العصير، بينما لاحقها مصطفى بنظرات غير مصدقة!

دوت كلمات (أبو مرة) في عقله كطبول حرب:

"ستجد أثار خطي الساحر برزت أمامك من تلقاء نفسها، ولن يتبق أمامك سوى درجة أخرى."

جاهد الدكتور الجامعي كي يتمالك أعصابه، قبل أن يسأل الضيفة مباشرة:

- هل اسمه....؟

- أرجوك لا تكرره، لكن... مهلًا، كيف عرفته دون أن أخبرك؟

السرور، النصر، اللهفة، التوتر .

أقامت هذه المشاعر حفلًا حاشدًا في صدر مصطفى:

- مدام داليا، لقد أفنيت شهورًا وأعوامًا، انتظارًا هذه اللحظة.

- جئتك طلبًا لتفسيرات، فإذا بك تضيف المزيد من الألغاز! ما هذا الذي أفنيت عمرك في انتظاره؟ وكيف عرفت اسم زوجي؟ بل وتنطقه بسهولة، كمن لا يأبه بخطورة ذلك؟

- بالطبع أعرف زوج حضرتك، سيرته ملئ السمع والأبصار في العالم السفلي، من الطبيعي يا سيدتي أن ينام تحت مستوي سطح الأرض، حتى وإن لم يصارحكِ بالسبب الحقيقي، فهذا ما يوفر له حماية ممن تمرد عليهم، ويعطيه قوة إضافية أثناء

الليل.

مدام داليا.. إن كان كل ما أخبرتني به حقيقي ودقيق، فاعلمي أن هذا الوضع سينقلب تمامًا، وسيسمح لي القدر أن أشهد تغير تاريخ السحر، وإعادة كتابته على يدك أنت.

- ماذا تقول؟ أنا؟

- نعم، أنت.

همت أن تسأل ثانية، لكن مصطفى خمن ما تريد قوله، فاستبقها قائلًا:

- أخبرتك أقصى ما يسمح لي البوح به حاليًا، أما عن الباقي، ففي التلفظ به خطورة عليّ وعليك حاليًا، لا تتعجلي، كل الإجابات ستهرع إليك من تلقاء نفسها، كل ما عليك: هو أن تقرئي زوجك.

واضح أنها عجزت عن ابتلاع هذا القدر من المفاجآت، في المقابل، ابتسم مصطفى بينما يرى ملامح وجهها ترسم خواء تام، لا تعبيرات من أي نوع.

- علها تلعن قدماها اللذان جاءا بها إلى الدجال المتمثل هو شخصي المتواضع، وقررت الاكتفاء.

استشف ذلك عندما وجدها تنهض منهية المقابلة بابتسامة جافة، وتشكره على وقته.

خمّن –كذلك- أن تلك الدمية سترهقه فيما يبدو، وستحتاج إلى كثير من الوقت لتصدق المجد الذي ينتظرها!

استوقفتها:

- ثانية لو سمحت.

فتح درجه، وأخرج منه قارورة زجاجية بها سائل مصفر، ورغمًا عنه تحسسها بحنان للحظات، لما فجرت داخله من ذكريات قريبة.

أخيرًا ناولها إياها، وتمنى -بصدق- أن تدرك قيمة عطيّته:

- خذي، احتفظي بها في مكان بعيد عن متناول زوجك، فستحتاجينها، وستحميك.

تناولت القارورة مترددة، بينما عيناي تسرح في السائل المصفر داخلها.

- أعلم جيدًا أنك تخالينني -ببساطة- مخبولًا، وقررت أن تجاريني على قدر عقلي، ثم تلقي القاروة في أول سلة قمامة بعد خروجك.

عجزت داليا عن تدارك التعجب الذي استولى على ملامحها، وفضح القرار الذي انتويه فعلًا.

نصحها ألا تفعل، وإلا ستخسر كثيرًا بهذه الخطوة.

- مدام داليا، كما قلت لك؛ خلال فترة وجيزة، ستعرفين ما عليك فعله من تلقاء نفسك، وقتها اتصلي بي، هذا هو الكارت الذي يحمل كل أرقامي.

****

عادت داليا مبلبلة الفكر من عند ذاك الـــ مصطفى، كم أجاد تقمص دور (العليم ببواطن الأمور)، في حين لم يقدم معلومة مفيدة واحدة!

أقصى ما حصدته من الزيارة؛ هو حفنة الكلام

الضبابي عن:

"القدر سيسمح لكِ أن تشهدي تغير تاريخ السحر، وإعادة كتابته على يدك أنت".

"كل ما عليك: هو أن تقرأي زوجك".

"خلال فترة وجيزة، ستعرفين ما عليك فعله من تلقاء نفسك".

"خذي هذه، احتفظي بها في مكان بعيد عن متناول زوجك، فستحتاجينها، وستحميك."

تذكرت فجأة أمر القارورة!

إنها لا تزال في حقيبة يدها، لم تجرؤ على التخلص منها بعد أن خمن رجل الخزعبلات نيتها هذه.

نفذت داليا نصيحته، وحفظتها بعيدًا في ركن منسي، ونسيت معها كل شيء عنه.

****

عادت حياتها إلى مجراها الطبيعي.

و- كالعادة- تركت نفسها للتيار، يأخذها حيثما يشاء.

ففوجئت به يُعيدها إلى شاطئ كلمات د.مصطفى، حيث قدر أروع مما حلمت يومًا.

بدأ كل شيء بآهة ألم قادمة من الحمام، حملت صوت زوجها!

هرعت إلى هناك بخيال يسرف في تصوراته، كل السيناريوهات والاحتمالات واردة عندما

تفلت صيحة من الساحر.

تحب –دومًا- أن تناديه بكلمة "ساحر"، فهي تناسبه من الناحيتين؛ المجازية والحرفية.

أطلت بتهيب من باب الحمام المفتوح، متأهبةً للأسوأ، ثم تنفست الصعداء، واضح أنها أسرفت في التخيلات فعلًا.

إذ وجدته أمام المرآة، خده الأيسر غارق في رغاوي كريم الحلاقة، بينما الأيمن نصف جاف، تنحدر منه قطرة دم يتيمة، لوح الساحر بماكينة الحلاقة باسمًا:

- جرحت نفسي، لا تقلقي.

-أوه، يا طفلي الصغير، بدوني تعجز عن الاعتناء بنفسك لحظة .

اقتربت بخطوات حثيثة، ومسحت عنه نقطة الدم بالمنشفة، ثم مررت على بقية ذقنه بحرص، كم تحار حقًا في مشاعرها المتناقضة تجاهه!

هي تعشقه، وفي نفس الوقت تخافه!

متيّمة بقوته الجبارة، وفي نفس الوقت، تبغض شعورها بالضآلة أمام هذه القوة!

لذلك، أغرمت برؤيته في هذه اللحظة العادية، مجرد رجل أخرق يجرح نفسه أثناء الحلاقة.

التقطت حد الموسي من يده، وهمست:

- سأساعدك .

لثانيتين؛ مانعت يده الممسكة بشفرة الحلاقة، ثم زال تصلبها، واستلمت لمبادرة الزوجة.

مررت داليا الماكينة بحذر على ذقنه، وهي تدهس الرغاوي البيضاء في طريقها، ثم غابت عن الوجود بينما تسر في أذنه باعترافها الأبدي:

- أحبك .

وجدته يتأملها عبر المرآة أمامه، قبل أن يواصل:

- ليس أكثر مني بالتأكيد، قلت لك قبلًا: أنني بدونك وحش بائس.

أكملت حلاقة خده الأيمن، فالأيسر، ثم طلبت منه أن يرفع ذقنه إلى الأعلى.

و...

-ما هذا على عنقك؟

تحسس الساحر رقبته، ودقق بها عبر المرآة، فلم يجد بها ما يريب:

- ماذا هناك؟ إنها نفس عنقي كما أعرفها منذ ٣٣٠ سنة!

قادت يد داليا أصابع زوجها إلى المنطقة المقصودة:

- نعم، علامات حمراء كثيرة وكأنها حساسية، أو ...أو –ضاقت عيناها مع الإضافة الأخيرة - حروف كتابة!

التقط الساحر الموسي من يدي، وهو يداعبها بأن أعصابها مرهقة فيما يبدو، أي علامات حمراء يمكن أن تجد طريقها إلى عنقه، وهو سيد أهل السحر؟!

تأملت رقبته ثانية، ووقر في قلبها يقين تام بما رأيته، إنها كلمات بخط متعرج عفاريتي.

في الأعلى كلمة تشبه إلى حد كبير كلمة (عقر) .

اعتصرت ذاكرتها محاولة فهم المعنى، حسب فصاحتها اللغوية المحدودة، فإن كلمة (عقر) تعني.. (ذبح)!

هناك سطر آخر مبهم تحت كلمة عقر، لم أتبين منه سوى (هذه لـــ.... م...بل.....ك).

وفي ذيل النص، تكررت كلمة (الطرف) مرتين.

مادت الأرض بداليا، كادت تصر على رأيها ثانية، لولا أن سبقها الساحر:

-سلمت لي يداكِ.. حبيبتي، لكنني أحتاجهما أكثر في إعداد الغداء، فطفلك الكبير جائع جدًا.

****

"خلال فترة وجيزة، ستعرفين ما عليك فعله من تلقاء نفسك".

"كل ما عليك: هو أن تقرئي زوجك".

"اقرئي زوجك".

"اقرئيه".

****

استرجعت داليا نصائح مصطفى، بعد أن سبق وألقتها إلى قمامة ذكرياتها.

يا إله العالمين !! أترى لكلامه معنى؟!

أيفسر ما أبصرته على عنق زوجها!

لقد تصورت أن ما كتب عليه هو (عقر). أقرأت خطأ، و(الراء) في الحقيقة هي ما هي إلا (دال)؟!

أيكون "العقد" الذي تحدث عنه مصطفى؟!

قلبت داليا طبقها بالمعلقة، في حركات دائرية مستمرة، مع إبقاء عيناها مصوبتان نحو رقبته، رقبة الساحر.

انتبه الرجل، ليقول بابتسامة واسعة:

- لم تضعِ لقمة واحدة في فمك؟

أشاح وجهها لفوره، لتسارع بمضغ ما تناولته من الطبق.

انتصف الليل.

الساحر غارق يغط في نوم عميق، فجاء دور داليا أن تقترب منه بحرص، وأمالت عنقه قليلًا بأنامل مرتجفة.

ثم أقدمت على ما نصحها به مصطفى.

قرأت زوجها.

الآن تبدو الكلمات كأوضح ما يكون، والأعجب أنها تأخذ شكل صيغة رسمية مختصرة.

****

عقد

هذه لي.. في مقابل القوة والمجد لك..

الطرف الأول: .....

الطرف الثاني: .....

الشاهد:

.....

ماذا يعني ذلك؟!

تبدو رسالة لي!! لا لزوجي!

ومن (أبو مرة)؟!

وما المقصود بـــ (هذه لي)؟!!

امتعضت داليا من سؤالها الساذج الأخير؟؟!

اللفظة مكتوبة على عنق الرجل، فواضح جدًا إلام تعود الإشارة (هذه).

هرعت المرأة إلى التليفون، كي تطلب رقمًا من كارت صغير، كُتب عليه بحروف منمقة :

"مصطفى محمود جميل"

أستاذ بكلية الآداب، علم اجتماع.

دكتوراة في تطور السحر والتفكير الخرافي

اتقدت أعصابها على جمر الانتظار، حتى أتى الصوت الرصين للطرف الآخر، يسأل عن المتحدث.

- أستاذ مصطفى، معك مدام داليا، أعتذر جدًا لإقلاق نومك، فللأسف، ما حدث معي لا ينتظر الصباح.

أجاب صوته بيقظة تامة، شابها الحذر:

- لا تراعي يا سيدتي، فالليل هو أوان عملي، كيف لي أن أخدمك؟

- قرأته يا د. مصطفى، قرأته.

- أخيرًا.

حدثها عن القدر العظيم الذي يقفان على

أعتابه!

من بين ملايين البشر تم اختيارهما هما تحديدًا.

- لكنني أ...أحبه.

- لا تخدعي نفسك، إنه سفاح وساحر غيّب عقلك بسحره، أثق أنك من الداخل تتمنين التحرر، وجزء آخر منك يتلهف لـــ.. لنيل مكانه.

شدهت داليا جراء هذه الطعنة اللفظية.

- نيل مكانه؟ هل جننت؟ ماذا تعرف عني حتى تقول ذلك؟

جاء الرد القاسي مباشرة من مصطفى، أنه بالتأكيد يعرفها.

- من تظنين نفسك؟ هل تتخيلين أنك بريئة

إلى هذا الحد! أتوجد امرأة تتحلى بذرة من هذه الصفة، تقبل الزواج من شخص قال لها أنا ساحر، بل وتعلم جيدًا أنه في غرفته على بعد خطوات، يمزق الأجساد ويستحم بدمائها، لطالما سألتيه مرارًا عن حدود قدراته، ألم تصارحي نفسك بالسبب؟ أنك –في سريرتك- تتحرقين شوقًا لليوم الذي تأخذين فيه مكانه.

بهتت داليا من تلكم طلقات الرصاص المتتالية.. جاهدت كي تنكر، أو تقول أي شئ:

- أنا أأ....

خرست الكلمات في حلقها، واستسلمت لحقيقة أن كل حرف تلفظ به مصطفى صحيح.

من المؤلم أن يأتي غريب، لينسف السد بين

عقليها الباطن والواعي.

-كل ما عليك فعله، هو الموافقة وتوقيع العقد، الآن سأشرح لك خطوة فخطوة، قولي لي أولًا: أهو نائم الآن؟ ألا زلت تحتفظين بالقارورة؟

سرقتها حماسة مصطفى من نفسها، شعرت أنها ليست نفس المرأة، ثمة داليا أخرى استحوذت عليها.

- نعم.

- اخرجيها إذن، وتحركي ناحيته بحذر ، فنحن -أولًا وأخيرًا- تتعامل مع شخص مدعم بمفاتيح السحر، أي أن قوته كافية للشعور بطاقة القارورة في يدك، قبل حتى أن تدخلي الحجرة.

- ماذا أفعل إذن؟ ثم؟ ثم ما طبيعة محتواها

بالضبط؟

- صدقيني يا مدام داليا، لن تحبذي معرفة إجابة هذا السؤال الثاني.

أما عن الأول، فعليكِ الاقتراب من الباب بحرص، ثم رددي ما سأمليه عليك، يجب أن تكتبيه الآن، والكلمات كفيلة بحجب الإحساس بالقارورة وطاقتها، و...

****

أغلقت داليا الهاتف، ثم تحركت كالمنومة مغناطيسيًا، تفعل ما شرحه مصطفى بالضبط.

اتجهت إلى درجها البعيد النائي، وفتحته برفق، ثم سحبت منه القارورة، وتأملت -على هدى الضوء الخافت- سائلها المصفر الرائق.

ثم عادت.

بطبيعة الحال، تألف داليا كل تفاصيل غرفة نومها، لكن عندما وقفت على أعتابها هذه المرة، استشعرت وكأنها أمام بوابة عالم آخر.

عبر الباب الموارب، رأت صدر زوجها النائم يتحرك صعودًا وهبوطًا. فبدأت بالهمس من وريقتها الصغيرة، ما أملاه عليها مصطفى:

"بحق الأسماء والأرقام، بحق الشمس والنجوم، بحق كل ريح، وبحق كل قربان ذبح عند قدمي عظمتك، ارشدني إلى ما فيه المجد، وانفذ رغبتي وابلغ منايا، واهتم بحجتي".

شعرت بروح ثقيلة تتجسد في المكان، وراء ظهرها مباشرة.

لا تدري كيف تصف بالضبط، الأمر أشبه بحضور بكيان ذو هالة كثيفة، تشعر بجثومها على روحك حتى دون أن تراه.

انقبض قلب داليا بقوة، و....

"اكملي قراءة الكلمات، مع التقدم نحو الساحر ببطء، تذكري يا مدام داليا: لا تلتفتي أبدًا حينها، إذ ستعجزين عن تحمل ما سترينه".

وضعت يدها على صدرها، وتنفست بأعمق ما يمكن، لجاهدت كي تدفع إلى صدرها أقصى ما استطاعت سحبه من هواء الحجرة، ثم تحركت القدمان بخطوات متعثرة إلى الأمام، بينما الشفتان تكملان بحروف أكثر تعثرًا:

"بحقك يا طهطيل وبارنوخ، بحق السحر

والسحرة، بحق كل قرين وقرينة خادم وخادمة ملك وإله".

مع تقدمها في التعويذة، انتبهت إلى تطور جديد؛ حضور الكيان المظلم يتزايد، كما خيل إليها أن صدر الزوج همد عن التنفس، ليبدأ جسده في التشنج الخفيف غير الملحوظ.

انسابت بعض الطمأنينة إلى قلب داليا؛ هذا دليل أن كلماتها ذات مفعول!

دنت من السرير، وانحنت إلى عنق كانت – بالأمس- تسكب عليه قبلاتها.

واليوم تسكب زيت مصفر، وتعويذة!

خمش صدر المرأة عشرات الأحاسيس المتناقضة!

تذكرت خواطرها السابقة حول:

"إنني أعشقه، وفي نفس الوقت أخافه، متيمة بقوته الجبارة، وفي نفس الوقت، أبغض شعوري بالضآلة أمام هذه القوة".

همست بصوت لم يتجاوز سريرتها:

- كفاني شعور بالضآلة إذن، لقد نعمت - يا عمري- بالقوة لقرون، فإذا كنت تحبني كما أحبك، لن تبخل على بنفس الفرصة".

عاد بصرها إلى الوريقة مرة أخرى، و...:

"أنت سيدي وأنا أمتك المطيعة، خادمتك الخانعة الذليلة، حان وقت إنفاذ قضاءك في الخارجين عليك، الهمني القوة حتى أطيعك، أشهد كل حملة العهود السليمانية وكل جان ذي نار،

أشهد "مصطفى" البشري المختار، على... قبولي توقيع العقد".

****

"اقتربي منه ببطء، ولا تخافي، فروح الظلام التي تستدعيها التعويذة ستكون خلفك، تشد من أزرك، اسكبي قطيرات القارورة ببطء على رقبته، وعندها ستجدي العقد قد ظهر أمامك بحروف جلية، وأرجو ألا تُفاجئي، إذا..

****

فتح الساحر عينيه فجأة، فخيّل إلى الزوجة أن روحها انخلعت -فزعًا- عن جسدها!

تعلق بصر ممزق الأجساد بنقطة ما خلف ظهرها، ثم اندفع من فمه صوت عفاريتي لم تسمعه

قبلًا، بلغة لا مثيل لها على وجه الأرض، لغة لم تخلق لألسنة البشر!

الأعجب، أن الروح المهيبة خلف داليا أعلنت عن نفسها بوضوح لأول مرة، فأصدرت صوتًا كالفحيح يجيب الساحر بنفس اللغة.

السادة منخرطين في عتاب حاد!

تذكرت داليا بقية التعليمات الملزمة، فقد بلغت نقطة اللارجعة، وإذا خرجت عن الطريق الآمن الذي وصفه مصطفى، في الأغلب، سيتم سحقها في ثانية.

حبت على السرير خطوتها الأخيرة إلى الساحر، وتمنت لو كانت صماء حتى تنجو من سماع الحوار الدائر، بينما أكثر ما طمئنها أن جسده

مكبل عن التحرك قيد أنملة.

الشيء الوحيد الذي تحرك فيه.. عيناه!

عيناه اللتا التفتا إليها ليخترقاها كرمحان من نار، عاد صوت الساحر إلى نبرته العادية التي تعرفها داليا، سألها كيف ترضى بخيانة من تحب، والتعاون مع أشنع أعدائه.

طلب منها أن تتدارك خطأها، وتتلو التعويذة بالمقلوب، ذكرّها أنه الساحر.. الرجل الوحيد على ظهر الأرض الذي عشقها.

في المقابل، انحدرت دموع ساخنة صامتة على وجنتيّ داليا، فتحوّلت نبرة الساحر إلى الشراسة:

- أتعرفين ما أنت مقدمة عليه أيتها الحشرة؟ أنا ولي عهد زورستر، وحامل ضياء شموع السحر

الثمانية. إذا أقصيتني من هذه الحياة، سأعود لأسحقك أنت -ومن ساعدك- في ألف حياة تالية.

أغمضت داليا عيناها بقوة، كي تستعيد الجملة المفصلية التي جالت بعقلها منذ ثوان:

"لقد عبرت نقطة اللارجعة".

في نفس الوقت، ارتدى الزوج ثوب حنوه القديم، والذي لطالما أذاب قلبها:

- حبيبتي داليا، أرجوكِ.

ازداد ارتجاف يد الساحر اليمني، دون أن تتمكن من الحركة.

بدا واضحًا أنه يستميت في المحاولة، دون فائدة، وهو ما شجعها أن تقتل داخلها ما تبقي من

تردد.

عانت - بما يفوق كل الحدود - كي تسيطر على ارتعاشة أناملها، بينما تمدها بالقارورة نحو عنقه، وتسكب أولى نقاط الزيت.

هبطت القطيرة بسرعة الجاذبية العادية، في حين هُيئ لداليا أنها استغرقت قرونًا، حتى لامست جلده.

شهق حلق الساحر ليخرس بعدها تمامًا، وفي اللحظة ذاتها، تغير لون جلده إلى الشحوب تدريجيًا، وصارت حروف العقد كلمات مضيئة ساطعة.

اقترن ظهورها بعبارة داليا المصاحبة لدموعها:

- آسفة.. أحبك.

****

داليا على يمين السرير، ومصطفى إلى اليسار، وبينهما ممزق الأجساد مستلقيًا على ظهره، عيناه تحدقان -بمقت- في اللامكان.

إنه حيّ وواعٍ، وفي نفس الوقت، سقط آخر حصون مقاومته بتأثير الزيت والتعويذة.

أصر مصطفى على وضع لمساته، التي أكد أنها ضرورية؛ شموع سوداء حول السرير، تمثال لرأس كبش، نجمة خماسية.

ومضت عينا دكتور السحر بالنصر، بينما يوجه حديثه إلى الجسد الهامد، أخبره أنه صعدت سلم طويل للغاية، تدرج فيه –ضمن ما تدرج- على حساب زوجته الراحلة، وكل ما أراده في

النهاية أن يصل إلى هذه اللحظة، أن يلتقيا.

ظلت عينا الساحر متصلبتين على نفس الشرود، على رغم من تطاير الشرر منهما حقيقة لا مجازًا.

علم مصطفى أنه المقصود بهذه النظرة، فتجاهله تمامًا، قبل أن يتوجه إلى داليا بسؤاله:

- مدام، هل أنت مستعدة؟

تحررت المرأة من جمودها، ومسحت الخطوط الرطبة التي خلفتها الدموع أسفل العينين، ثم أومأت إيجابًا.

تناول مصطفى شفرة الموسي، وارتفع صوته يترنم بطلاسم مبهمة.

ثم جاءت اللحظة، مد يده إلى رقبة الساحر، ملأ عينيه –أولًا- بشهوة النظر إلى الكلمات المحفورة، ثم وقع باسمه على رقبة الساحر، تحت كلمة الشاهد.

أصدرت الحنجرة غرغرة مقززة بينما يجزها مصطفى بإمضاءه.

غامت عينا داليا أمام منظر الدماء المتفجرة، وعقلها يختلس ذكريات قديمة مع زوجها الهالك:

لقاءاتهما في النادي على ضفاف النيل، كلماته المتيّمة الذي طالما دغدغت عواطفها، تجهيزهما لأدق تفاصيل عش الزوجية، لحظة اعترافه بحقيقته، أول ليلة لهما كزوجين، و...و....

عجزت عن استعادة تفاصيل أكثر، فمنظر

الدماء جعلها تغيب تدريجيًا في وادٍ منسٍ من غياهب عقلها.

كل ما تذكرته هو المستقبل، وتخيلها لسيناريوهات مؤلمة عن:

- كيف ستعيش من بعده؟

هل ستحيا على ذكراه، وامتنانها لفضله في القوة والمجد اللذان ستحصل عليهما.

أم أن الاكتئاب قد يهزمها، ويترلق بها الاحساس بالذنب إلى.. الانتحار مثلًا!

الانتحار.

الانتحار.

دقت الكلمة في رأسها كالناقوس، فلم تعد

تعلم أي شيء، كل ما تعرفه أنها نطقت التعويذة، وصارت هي من تحركها، لتغدو الآن مسيرة لا مخيرة.

المفترض أن مكان توقيها على اليسار، قرب الشريان الودجي.

لاحظت أن كلمات العقد لا تزال على سطوعها، ولم تداريها الدماء المتخلفة عن إمضاء مصطفى.

همست:

-وداعًا يا طفلي.

لم تغمض عيناها، وتشبثت بالنظر لشفرة الموسي وهي تخترق الرقبة.

اعتنت بجعل توقيعيها أنيقًا قدر الإمكان، بينما تشق به اللحم والوريد تحت كلمة (الطرف الثاني):

- داليا.

****

فجأة، أخذت الدماء تغلي مكان التوقيعين، واستحال عنق الساحر ولون جلده إلى لون شاهق البياض، تلاها أن انطفأت الشموع بطريقة مباغتة.

ارتدت داليا مفزوعة إلى الوراء، اعتقدت أن اتفاقهم لم يتضمن استمرار الرعب، حتى بعد التوقيع .

ثم عجزت عن استيعاب ما حدث لاحقًا!

قوة مهولة تدفقت في جسدها، وجرت في العروق مجرى الدم.

قتلتها، أحيتها، زلزلتها.

سمعت صرخة منتشية من مصطفى، فأيقنت أنه يشاركها نفس التجربة.

علوم ومعارف مظلمة فنيت أعمار الكثيرين في محاولة اكتسابها، كلها انسابت في عقلها خلال ثوان قليلة.

عصارة قوى أبدية، ارتشفها كيانها في لحظات.

تحول السقف فوقهم إلى دوامة سوداء، تموج بآلاف المهنئين من سادة العالم السفلي.

لم تحتج إلى أن يحذرها مصطفى هذه المرة أيضًا، وتحاشت النظر من تلقاء نفسها.

تعالى صوت أبو مُرة، يصرخ بلا صوت داخل عقولهم مباشرة:

- مبارك، هنيئًا لكما القوة، وهنيئًا لي الانتقام.

تسارعت حمى الدوامة فوق الرءوس، فأجبرت

داليا ومصطفى على الانحناء، بينما تسمع تمتمة خاشعة تخرج من مصطفى:

- هل انتهى أمره تمامًا هكذا، يا سيدي؟

تملّك داليا امتنانًا عارمًا تجاه مصطفى تلك اللحظة!

فقد تشجع بطرح السؤال الذي خشيت التفوه به.

"إذا أقصيتني من هذه الحياة، فسأعود وأسحقك -ومن ساعدك- في ألف حياة تالية".

لم تنس المرأة عبارة زوجها السابق، التي ثقبت حاجز الأمان داخلها.

-كلا أيها الشاهد المخلص، عليكما الاحتراس

من ١٣ أغسطس، يوم ميلاد المنشق، ففيه يستطيع التغلغل نسبيًا إلى العالم المادي، وسيستميت -بأي طريقة- لإلحاق الأذى بكما.. مع علمه أن المعركة ستكون في غير صالحه، وأنكما ورثتما كامل قوته.. لا تقلقا..

عجزت داليا –شخصيًا- عن تنفيذ نصيحة أبو مرة.

الطاقة الفوق بشرية داخلها لم تمنع توجسها من فكرة مواجهة ثانية مع الساحر، مجرد عودته بأي وسيلة كفيلة بتدمر ثباتها النفسي.

على الأقل هذا العام، فهي لم تخرج من تأثير ما حدث بعد.

أحاطت وجهها بكفيها، تقاوم الدوار.

- أحقا يا السيد العظيم؟! أيمكن أن يعود حقًا؟ أما من طريقة تمنع عودته في ذلك اليوم نهائيًا؟

عادت الروح إلى داليا، عندما سمعت الرد:

- بل توجد.

انقطع الصوت برهة، قبل أن يكمل:

- يؤسفنا أن نشتم رائحة الخوف في عروقك، حتى بعد ما خلعناه عليك من قوة ومجد، نعذرك لأنك لم تصدقي نفسك بعد، أو –أقله- تعلمي من أنت حاليًا، وتحت ظل من صرت.

عمومًا، لك الحق أن تعرفي كل أسلحتك، وتحيطي بالظاهر والخفي منها.

كي تدرئي عودة المنشق نهائيًا يوم بزوع

مولده؛ عليكِ أن تقضي ذاك اليوم، بصحبة بشر عالقين "بين عالمين"، هذا سيحجب عن (الساحر) القدرة على الولوج للأرض، أو الاقتراب من جمعكم.

انسحبت دوامة الظلام فوقهم تدريجيا، وأسدل الصمت أستاره على المكان.

****

وسط الظلام الدامس بالغرفة، سقطت داليا بإرهاق على ركبتيها، من أين لي بأشخاص يحيوا بين عالمين؟ ما معنى الجملة أصلًا؟

ثم وجدت نفسها تعود إلى السؤال العاصف الأول: هل سارت في الطريق الصحيح؟ هل ما فعلته أكسبها مجدًا مؤزرًا، أم أنني في المقابل خسرت نفسها إلى لأبد؟!

شعرت بانسياب الصوت الواثق لمصطفى إلى عقلها:

- لا تقلقي، عرفت ماذا على أن أفعل، وسأتدبر موضوع الأحياء بين عالمين، فقط حتى تطمئني؟

رفعت داليا رأسها إلى الاتجاه الذي قدرت

وجود مصطفى فيه.

المشكلة، أن قلبها عالق في حيرة بلا حدود.

من جانب: هو منتشي بالقوة التي تشربها، وعلى الجانب الآخر، يتألم من حجم التضحية، وأنها ودعت إلى الأبد صورة "داليا" الحالمة، حيث كانت تقف أمام المرآة، وتمارس إدمان الأنثى المعتاد بـــ؛ إيهام نفسها أنها ملاك.

- إنني.. أنا..

حاولت نقل شعورها بإيجاز، وإن لم تستطع الشرح تمامًا، الفكرة الوحيدة التي تكبر في رأسها حاليًا، هي الانتحار.. فتستريح من ذلك كله.

صمت مصطفى، مما جعل داليا تكن نحوه أطنانًا من اللوم، لعجزه عن فهمها، مع أنها—للعجب-

على فهم نفسها أعجز!

مع ذلك، وجدته يبذل محاولات تستحق الثناء، عندما رد:

-في البداية، وجدتك قلقلة بصدد إيجاد من يحيون بين عالمين، فأخبرتك أنني أستطيع تدبر ذلك، والآن تربكينني بأنك -في داخلك- تريدين ممارسة السحر وطقوس الشباب الدائم، وفي نفس الوقت، يؤلمك فقدان إحساس "الضحية البريئة"؟! لا أفهم ما الذي تريدينه بالضبـــ.. أو لأقل لك: يمكنك استخدام تعويذة "الإزاحة"؟

-...؟

- يمكنها تعطيل خط معين من الذكريات، فلا تسترجعينه إلا في وقت معين من العام. أعتقد أن

هذا حل وسط طيب، ستعيشين أغلب السنة في دور الضحية، ثم تستدعين في الأيام الضرورية – فقط- حقيقتك كجلاد. بل وتستطيعين المبالغة كما تشائين في رسم ماضي بديل، فتوهمين نفسك – مثلًا- أنك اكتأبت بعد رحيل زوجك، وأمضيت فترة طويلة كأرملة معذبة تفكر في الانتحار.

نزل الحديث على داليا، كالماء على الأرض العِطشى، فاستوثقت متلهفة:

- هل ما تقوله حقيقي؟ أهذا ممكن ؟!

- من ناحية الإمكانية، فالتعويذة أسهل مما تتخيلي، لكنني -بصراحة- أراه حلًا ساذجًا، ما الداعي أصلًا؟! لماذا قد يكره إنسان حقيقته أيًا كانت!

عن نفسي؛ سأكتب رواية أبث فيها: كل أحلامي، واختياراتي، وآثامي أيضًا.

مهما أرتكب من ذلات، على الأقل سأحافظ على ذاتي –دومًا- من الفصام، من الكذب على نفسي.

سأكتب عن تسليم مصيري لأبي مرة، مقابل الثمن اللذيذ الذي حصدته من؛ قوة، مجد، شهرة.

سأكتب عنا يا مدام داليا، وعن وصولنا سويًا للقمة، عن العقد الذي وقعتيه أنتِ، وشهدت عليه أنا.

إذا كان كل ذلك صادمًا بالنسبة لك، وتبحثين عن إزاحته من ذاكرتك، فاحرصي –من الآن- على عدم اقتناء نسخة.

صمت مصطفى، بينما فكرت داليا أن عليه الامتنان للظلام المطبق حولهم، فهو السبب في عدم قدرتها على تحديد موقع وجهه؟ وإلا لخمشت أظافرها فيه لفورها.

هذا الرجل مستفز!

- نعم.. أنا تلك الحواء التي تعشق خداع نفسها، ومراوغة حقيقتها التي تراها في المرآة، فلتحتفظ لنفسك بفلسفتك ونسخ رواياتك، واترك لي اختياري الذي يناسبني.

أريد تعويذة "الإزاحة" تلك، الآن .

(تمت)

ماتت آخر كلمات القصة على شفتي مصطفى.

فاستقبلها الجميع بنظرات حائرة بينه وبين زميلته التي تجاوره في المنصة.

بادرت داليا:

- رواية تحفة يا مصطفى، وإن كنت مستمرة في الإصرار على نفس رأيي، فلم أقتنِ منها نسخة إلى الآن، لكن ألم تنتبه لنقطة هامة يا زميلي؟!

خمّن مصطفى أن هذا الهدوء يخبئ وراءه عاصفة، فتساءل بحذر باسم عن أي نقطة تقصد.

تأملت داليا أظافرها:

- قلت في الختام؛ أنني وددت -لولا الظلام-

أن أنشب أظافري في وجهك، ألا ترى أننا في إضاءة مناسبة الآن؟ فما الذي يمنعني؟

- هاههها، أشياء كثيرة، لعل أهمها: أن إصابة وجهي بالتشوه ستقعدني لفترة، لن تجدي خلالها من يساعدك بتعويذة (الإزاحة) حين يأتي موعدها الدوري. عمومًا، أعتذر لو أذيت مشاعرك يا صديقتي، فللأسف أعجز عن عرض وجهات نظري بغير الصراحة التامة.

التفت مصطفى إلى الجمهور بدبلوماسية، ووجّه اعتذارًا آخر إلى:

- السيدات الحاضرات عمومًا، في حالة لو آذيت مشاعركن بتفاصيل بالدماء والذبح.. و..

نهضت إحدى قريبات مصطفى في الصف

الأول، وقاطعته بأن؛ هذه ليست المشكلة.

-المفارقة أنني أعرفك شخصيًا، فأتعجب أنك تناولت كل تفاصيل حياتك الحقيقية، ومزجتها بخيالك المظلم، لقد كدت تشككني بحق أن زوجتك رحمها الله ماتت على يديك، بعد أن سلخت جلدها، بل وأن شهرتك والماجستير والدكتوراة، جميعهن جئن في وقت قياسي بموجب عقد وقعته مع الشيطان.

أضافت ضيفة أخرى سؤالًا جديدًا:

- لماذا كل هذا التعصب ضد المرأة، الذي يسري في حبر قلمك، لماذا هي عندك إما "ذبيحة" كما في شخصية الزوجة، وإما "شيطانة" كما داليا!

فرد مصطفى ذراعيه بمرح، تعبيرًا عن رحابة

الصدر:

- غير صحيح، قلبي لا يحمل ذرة تعصب ضد الأنثى، من ذا الذي يمكنه أن يعادي المرأة، وهي الأم والأخت و..الزوجة التي تضطر لسلخها حين الحاجة؟ والزميلة التي تشاركك توقيع عقد مع الظلام؟

بادر أحد الحضور، يطرح رؤيته الصريحة في النقطة الأخيرة:

-روايتك مربكة تمامًا بكل المقاييس، إذ نعجز عن التحديد؛ أهي إعادة معالجة لقصة "زورستر"؟ كيف واسم "زروستر" لم يرد فيها، ولو لمرة واحدة؟! كما وردت تفاصيل أخرى غير موجودة في الجزء الأول لداليا، مثل احتياج بهاء للمبيت

تحت مستوى الأرض؟ ثم أن داليا أنهت قصتها بنية صادقة في الانتحار، وتأقلم كل القراء مع هذه الخاتمة، فصارت روايتك يا د. مصطفى وكأنها؛ مسخ مبني على افتراضات مشوهة. اعذرني على صراحتي، إنما أردت قول رأيي فحسب، دون تعمد أي نوع من التقطيع.

عاجلت داليا مصطفى بنظرة مفادها: (ألم أقل لك؟!)، لكن زميلها فاجئها برده الحماسي:

- مبدئيًا؛ أحييك على رأيك الصريح، وأؤكد أنني –على العكس- أحب التقطيع بكل أنواعه؛ سواء المجازي أو الحقيقي. ثانيًا: أتشبث باللفظ الذي استخدمته أنت؛ القصة "إعادة معالجة"، أكثر منها جزء ثانٍ، أي من الطبيعي أن تحوي تفاصيل

وتناول مختلف؛ في الأسماء، أو الصفات، أو الأجواء.كما أعترف أن داليا اعترضت محذرة إياي.. إذ تضمنت وجهة نظرها أن استخدام نفس الشخصيات لن يضيف جديدًا، وقد يسقط المعالجة الجديدة في فخ التضارب والإملال، لذلك – بالتحديد- أقدمت علي كتابته.

تضاعفت جرعة الاستمتاع في كلمات الشاهد:

- ما أجمل ارتكاب خطيئة التصرف باندفاع! مع يقيني أنني على خطأ، أشغف بفعل ذلك طوال الوقت، داخل قصصي وخارجها. وإن أخليت مسئوليتي –بالنسبة لهذه الرواية تحديدًا- عندما كتبت تحذير واضح في المقدمة، وأكدت على من

يخشى أي لبس، الأفضل ألا يكمل، إذن، لو حدث ذلك بالفعل لأحدهم، سيكون نتيجة اختياره الشخصي.

سائل ثالث:

-استفسار صغير يا د.مصطفى، ربما هو الشيء الوحيد الذي استغلق عليّ فهمه في القصة، ما معني: (الساحر سيعجز عن العودة، إذا تواجدتما مع بشر يحييون "بين عالمين")، كيف "بين عالمين"؟

تبادل (ثُلاثي المنصة) النظرات، وإن تركز أكثرها على محمود، بالإضافة إلى ياسين على الشاشة.

حسم مصطفى الأمر، وقرر تناول ناصية الحديث:

- الإجابة واضحة أمامكم؛ لدينا ياسين، البشري الذي تحول إلى طيف رقمي، فيحيا كليًا في العالم الافتراضي، ومنه يبث أفكاره وتفاعلاته إلى/ مع عالم البشر.

اعتدل ياسين فور ذكر اسمه، ولوح يمناه – بمرح- فيما يشبه التحية العسكرية.

- وحليم، الذي قاده القدر إلى حافة عالم الأشباح، وبلغه همسهم اليومي عبر أثير الراديو.

ألا يكفي هذان النموذجان المبجلان؟!

أطرق حليم برأسه، ومرر أنامله خجلًا بين خصلات شعره، بينما تمسك مصطفى حتى النهاية بتقمص شخصيته في الرواية، فأعاد تذكرهم أن اليوم هو ١٣ أغسطس.

- ألا يوحي لكم هذا التاريخ بشيء؟

أتبع السؤال بفرقعة من أصابعه، ليدخل عم سيد بتورتة كبيرة، يتوّج أعلاها كم غزير من الشموع.

احتاج الحضور وقتًا ليس بالقصير حتى انتبه بعضهم إلى الرابط، فانخرطوا في تصفيق طويل.

-"يا لك من مبدع يا د. مصطفى!"

-"أنتم الأربعة مذهلون بحق، تصلحون للتمثيل في السينما".

بان للموجودين أن مضيفيهم مصرين على الدعابة حتى النهاية، وإيهام الجميع بكل الطرق أن قصصهم واقعية.

١٣ أغسطس.. عيد مولد زورستر حسب

الرواية!

نهض الحضور من فوق كراسيهم.. والفرسان الثلاثة من منصتهم.. ليجتمع الكل حول طاولة كبيرة في المنتصف.

وضعت التورتة جانبًا، كي يوقع الثلاثة رواياتاهم للمعجبين –أولًا- على ضوء شموعها.

يمكن القول أن هرمون السيروتونين (هرمون السعادة كما يسمونه) سجل أعلى معدلاته فى دماء (حليم) و(مصطفى) و(داليا).

شخص واحد افتقد مشاركتهم تلك اللحظة، ذلك المطل من الشاشة بالأعلى، وقد ملأت كفه الكادر، إذ كان يتحسس الكاميرا/ نافذته من الناحية الأخرى، وكأنما يود العبور للمس لمحة مما

يراه على الجانب الأخير.

الوحيد الذي لمح اللقطة.. محمود.

قرأ ما يعتمل صدر زميله في ثانية، فاتجه إلى الشاشة الكبيرة، تاركًا المنصة والزحام والتوقيع، ثم فتح ذراعيه عن آخرهما، وكأنما يحتضن طيف زميله غير الموجود.

ابتسم ياسين بامتنان صادق:

- لمثل هذه الأسباب أعتبرك "توأمي".

- لي الشرف يا رفيق العمر، مـــ...

طرأت لمحمود فكرة مناسبة، جعلته يحول مجرى الحديث ببهجة نصر:

- ما دمنا متفقين على أننا واحد، ما رأيك أن

أكون يدك أيضًا، هناك من جاءوا خصيصًا لأجلك، ستملي على الكلمة التي ترغب توجيهها إليهم، وأنا سأكتبها وأذيلها بإمضاءك –عوضًا عنك- على نسخ (الفضاء الآخر).

تبعثرت الكلمات المرتبكة من فم ياسين:

- محمود يا صديقي.. أنت...أنت..

طالبه العندليب –مازحًا- ألا يجيب بأي شيء:

- لا تنس أن هذا في مصلحتي أولًا وأخيرًا، إذ سأكون الوحيد -بينكم- الذي يوقع على كتابين.

نادى حليم عم سيد ليساعده، فوضعا طاولة جديدة أسفل الشاشة مباشرة، وشيدا هرمًا مكونًا من نسخ (الفضاء الآخر)، بالإضافة إلى (راديو).

يمكن القول أن الحفل انقسم -منذ لحظتها- إلى كتلتين، داليا ومصطفى في المنتصف برفقة التورتة والشموع، بينما حليم وياسين في الركن أسفل الشاشة، ومن ثم التف حول كل منهما خاصته من القراء والأصدقاء.

انتبه حليم إلى تعكر نظرة السرور في عيني ياسين، وأن تركيزه -بالكامل- اتجه إلى نقطة في الخلف.

التفت محمود بدوره، فشاهد ما سرق انتباه صديقه، إنه شخص يرتدي بذلة سوداء، تعلوها عباءة فضفاضة بنفس اللون.

بعبارة أخرى؛ يبدو كأعيان الصعيد الذين يظهرون في المسلسلات القديمة.

دنا الرجل بخطوات متمهلة من المنصة، قاصدًا مصطفى وداليا.

ضيق محمود عينيه، يغمغم:

- أتراه هو...؟؟

هبط صوت ياسين من السماعات، يجيب بنبرة جافة، بينما نظره لا يزال معلقًا بالرجل:

- نعم، هو.

أحكم الاختناق قبضته على حلق محمود، فلم ينطق بكلمة أخرى.

لطالما طالب مصطفى وداليا بالتوقف، لطالما أخبرهم -ألف مرة- أن خط الرجعة متاح.. لو أرادوا.

على الناحية الأخرى، أراد -صادقًا- عدم المشاركة بهذه الأمسية، -فقط- لعلمه أن هذه اللحظة ستأتي.

السبب الوحيد لمجيئه؛ عدم استطاعته التخلي عن رفاق قدامى، مهما فعلوا.

أومأ ياسين ببطء وكأنما سمع خواطر صديقه، ويؤيدها في كل حرف.

تقدم ذو العباءة من مصطفى وداليا، فنهضا احترامًا.

قالت:

- أنرت -جلالتك- حفلنا المتواضع.

وقال:

- التاريخ سيسجل هذا الشرف لنا، سيدي.

ضم الرجل عباءته على صدره في حبور، قبل أن يجيب:

-وأنتما تستحقانه.

مد المهيب أنامله، فالتقط نسختين من (أنا والشيطان) و(زورستر)، ثم ناولهما لمؤلفيّهما:

- التوقيع، لو تكرمتما.

****

إهداء

"إلى السيد الأعظم.

أوثق امتناني نحو تشريفكم لي، بمنحي منزلة المعاون.. والشاهد.

وهذه الرواية - بدورها - شهيدي على ما أقول.

مصطفى جميل

إذا نسيت يومًا من؟ وكيف؟ ولماذا؟

لا أجد أفضل من هذا القربان المسطور كي يردني إلى الحقيقة.

وبما إن ظل جلالتك هو حقيقتي، فإليك وحدك أهدي هذا الكتاب.

خادمتك المطيعة.

داليا صلاح

-" لو سمحت لي بسؤال، عظمتكم".

ومضت العبارة حاملة صوت داليا المتردد.

- أعلمه، قرأته في عقلك، اطمئني، أنه في أقصى أركان هذه القاعة، يطل علينا من العالم الآخر مذمومًا، مدحورًا، يجرجر أذيال عجزه عن العبور.

انتشرت الثقة على وجه مصطفى، قبل أن يومئ لداليا.

ربت المهيب على كتفيهما بعيون ملئي بالرضا، ثم انصرف.

ارتفع صوت داليا المرح بغتة:

- أصدقائي الأعزاء، سنكمل معايشة قصصنا

كما تم الحرص منذ البداية؛ لدينا ٣٤ شمعة ترمز لسنين عمر زورستر، ونود التشارك في إطفاءها نيابة عنه.

التف الجمع مجددًا حول المنضدة، وعلا صوتهم بالغناء:

-"سنة حلوة يا زروستر، سنة حلوة يا جميل".

****

في زاوية مظلمة بعيدة من سقف القاعة، تكثف كيان ما محاولًا التمثل في شكل مادي.

لملم من قطع الظلام حوله، واجتهد في تكثيفها دون جدوى، بالكاد تكونت ملامح وجه البيضاوي، وعنق نحيل موشوم بحروف متعرجة.

واضح أن صاحبها يعاني كي ينطق، أو حتى يصرخ، لكنه بكل إحباط أدرك أن محاولاته تنتهي إلى لا جدوى.

تصاعد صوت حسيس بينما الصورة تتلاشي شيئًا فشيئًا، ليحل مكانها رسالة بحروف من صديد ودم:

- ســـ.. أر..جع.

(تمت)

ياسين أحمد سعيد- أسوان

محمود عبد الحليم - سيناء

داليا مصطفى صلاح - الجيزة

مصطفى جميل - القاهرة

تحريراً في ٢٠/٧/٢٠١٣م

١١ رمضان ١٤٣٤هـ

يسعدنا آرائكم، لمن يرغب.

على صفحة الكتاب بموقع جودريدز.

https://www.goodreads.com/book/show/21000296

للمزيد من أعمال فريق (لأبعد مدى):

رابط التحميل:

اضغط (هنا)

رابط التحميل:

(هنا)

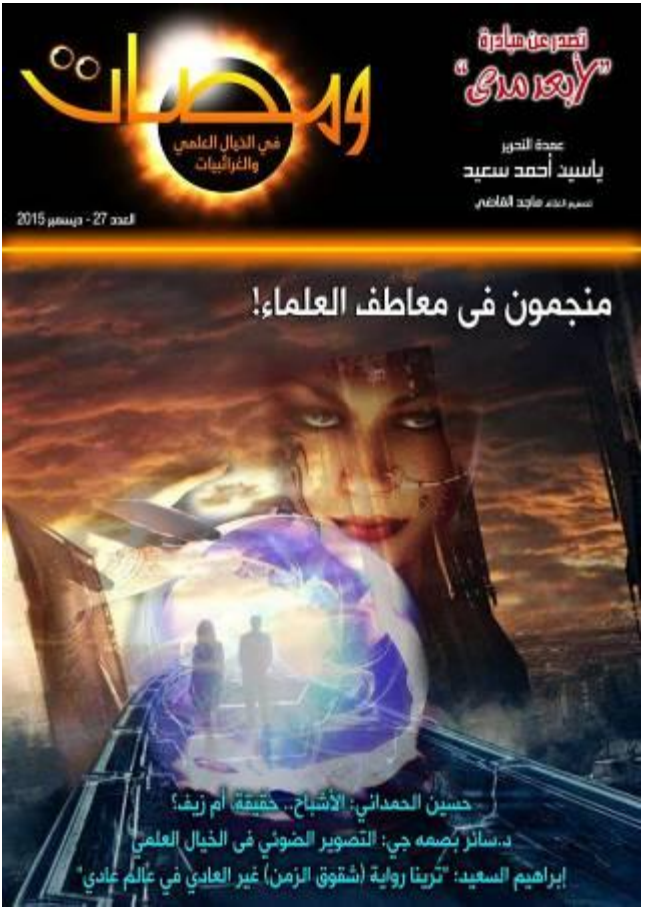

رابط مجمع لـ (أعداد المجلة الـ ٢٨):

(هنا)

سمها " إهداء" أو "خاتمة" أو "مقدمة" جاءت متأخرة بعض الشيء، أو اعتبرها كما يترائى لك

أتحرج من استخدام لفظة "أحب" عمومًا، وأرى أن هذا قد يخدش مهنية الانتماء لكتابة الرعب، لكن.. على سبيل الاستثناء.. أقولها صراحةً أنني أحببت تجربة هذه الرواية!

عجز فريقنا –قبلًا- عن الاجتماع في حفل حقيقي، ومن هنا ولد حلمي، بأن نلتقي على الورق في حفل افتراضي.

شرفني أشقائي الأعز بقبول الفكرة، فعشت

أجمل لحظات فخر، بأن أسماءنا اجتمعت -معًا- على غلاف نفس الكتاب!

إليهم أهدي هذه التجربة الأدبية، وأشكر لهم احتمال سماجتي العتيدة، التي تجثم على روح أي عمل جماعي أشترك به، وأحمد الله أنها لم تتسبب في خسائر في الأرواح.

أهديها -كذلك- إلى أصدقائي الافتراضيين، الذين لم يرونني أو أرهم، إلى أخويتنا العميقة التي رفضت الاعتراف بالمسافات أو حاجز الاقتصار على أسلاك الإنترنت، فيحيطني دفء مودتهم أينما كانوا أو كنت.

كما أهديه -أيضًا- إلى من شرفنا بقبول الدعوة، وأكمل معنا الأمسية حتى النهاية، طالما

وصل إلى هذا السطر... إليك عزيزي القارئ.

يبقي السؤال:

- هل ثمة تكرار للتجربة، بحيث تتحول إلى سلسلة روايات تفاعلية ؟

في الحقيقة، هذا الحلم يراود ورشتنا الأدبية الرباعية، في حين أن تحقيقه متوقف على عوامل كثيرًا، أحد أهمها أنتم أصدقائي القراء، ننتظر تعليقاتكم، ملاحظاتكم، اقتراحاتكم .

فلا تبخلوا بها.

تحياتي ومودتي وحبي.

ياسين أس

إلى أبـــي..

كنت أتمني أن ترى أول أعمالي المنشورة، وتكون أول المهنئين لي، وأول من يقرأ عملي الأول.

مازلت في غاية الشوق لمعرفة رأيك عن كتاب لن تقرأه.. مازلت في غاية الشوق لنصائحك وانتقاداتك وآرائك التي لن أسمعها.. ظني بالله أنك الآن في مكانة أعظم و أعلى و أجمل.

رحمك الله يا أبي.

محمود عبد الحليم

إهداء خاص..

لأمي التي تحملت جنوني وتقلباتي وشجعتني وساعدتني لأكون أنا.

أبي الذي أعرف أنه يحب كتاباتي سرًا، الذي بدونه لما أحببت الأدب والكتابة.

وشكر خاص لأختي.. مصدر إلهامي الدائم وسبب جنوني المستمر.

إلى خطيبي الذي تحملني، ووعد بأن يتحملني في المستقبل.

وشكر لكل من نصحني بترك الكتابة، وطلب مني الابتعاد عن الأدب، فلولا نصائحكم لما كنت

أكتب الآن.

داليا مصطفى صلاح

إهداء إلى ابنتي (آسيا) التي لم تأتِ إلى الدنيا بعد.

إلى روح صديقي إبراهيم كامل أسكنك الله فسيح جناته.

إلى أ.رافت السويركي لدعمه المستمر بلا انقطاع.

وإلى كل من ساعد على إخراج هذا العمل إلى النور... شكرًا.

إهداء أخير إلى أسرتي التي لطالما تحملت حماقاتي بصدر رحب.

مصطفى جميل